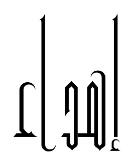
زحمة مشاعر

مجموعة قصصية

د. محمد لبيب سالم





أهـدي هـذه الروايـة إلـى كل صاحـب كلمـة تشـع أمـلاً في نفـوس الآخريـن...

المقدمة

من منا لا يجري ويهرول وراء مشاعره في بحر الحياة الهائج، فالمشاعر الإنسانية هي أعز ما تملكه النفس، هي الترمومتر الحقيقي للسعادة والحزن. وقد تفور المشاعر في لحظة حب صادقة وقد تتقوقع في لحظة حزن فارقة. وقد تتزاحم المشاعر وتتضارب فتفقد صوابها، حينئذ نحتاج إلى لمسة حب حقيقية تطل من عيون الآخر؛ لترسو النفس على شاطئ حبات رماله من مشاعر الحب النقية الصادقة، وعن زحمة المشاعر التي قد تنتاب النفس تدور هذه المجموعة القصصية التي يشعر القارئ فيها وكأن سطورها تتحدث عنه في لحظة ما يبحث فيها عن مشاعر صادقة وسط زحمة الحياة.

المؤلف

بداخل كل منا زحام من المشاعر بعضها يسعدنا وبعضها يؤلمنا والبعض الآخر يحيرنا، وأحيانًا نتساءل، هل ما نشعر به حقيقة أم محض خيال؟! وهل هذه المشاعر بصمة حب أم كره؟! ومع أننا أحيانًا نسخط على مشاعرنا ونتمنى حالة اللا مشاعر لعلنا نتجنب ألم القلوب وحزن العقول، إلا أن قلوبنا ترقص وتفرح بمجرد أن تشم رائحة السعادة فتنسى حينها الألم فتتبدل مشاعرنا وتتغير لتبقى النفس متقلبة في بحر مشاعرها الهائجة تارة والهادئة تارة أخرى، وهكذا تتراقص مشاعرنا إلى آخر العمر ليبقى الإنسان دائمًا في زحمة مشاعر لا يستطيع جيش من المرور تنظيمها.

لمياء السعيد

أم محمد ومناديل المعاش

"فعلاً إذا كان المثل بيقول اعمل الخير وارميه البحر، أنا بقول قول الدعوات وارميها البحر".

لم يرعِ اهتمامه السيدة العجوز التي تقف على ناصية الشارع الذي يمر منه يوميًا بسيارته وهي تمد يدها لتبيع تلك المناديل للمارة وأصحاب السيارات، لم يلقِ لها بالاً اليوم بالرغم من حنوه عليها بشراء المناديل ووضع ما تقع عليه يده من جنيهات فضية يضعها بجانب فتيس العربية خصيصًا لهذا الغرض، لم تشغل باله ولم يرها ولم يلقِ عليها صباحه المعتاد لأن باله كان مشغولاً بخبر ترقيته إلى منصب كبير سوف ينتقل على إثره إلى مكان آخر أكثر أهمية ونفوذًا وسلطانًا، يستطيع منه اتخاذ القرارات المصيرية التي تؤثر على الناس والشارع والحارة والمدينة بل على المحافظة كلها، وكيف لا وهو مرشح لمنصب سيادة سكرتير عام المحافظ.

كاد مختار بيه كما تناديه السيدة العجوز أم محمد كما يناديها أن يمر بها بسيارته دون أن يراها ولكن لحسن حظها

تغيـرت الإشـارة مـن الأخضـر إلـى الأحمـر، حمـدت الله علـى تغييـر الإشـارة لأن مختـار بيـه سـوف يشـتري منهـا المناديـل ويلقـي عليهـا تحيـة الصبـاح لتمطـره بالدعـوات مـن كل شـكل ولـون، توقـف مختـار بيـه وابتسـم للسـيدة العجـوز أم محمـد واشـترى المناديـل وألقـى بعـض الجنيهـات في سـلة المناديـل وطلـب منهـا الدعـاء، وكعـادة كل يـوم أمطرتـه بالدعـوات وأنهتهـا بـأن ينـال مـا في خاطـره وبالـه.

ابتسـم مختـار بـك وانشـرح قلبـه مـن أخـر مقطـع في الدعـاء، يـارب يـا أم محمـد أنـال مـا في بالـي اليـوم. إن شـاء الله تنالـه يـا مختـار بيـه بـس مـا تنسـانيش ويكـون لـي الحـلاوة.

طبعًـا يـا أم محمـد أنـتِ تؤمـري، أي حاجـة تطلبيهـا أنـا تحـت أمـرك بـس ربنـا يسـتجيب لدعوتـك ويتحقـق اللـي في بالـي.

إن شـاء الله يـا مختـار بيـه، وأنـا حلاوتـي أنـت عارفهـا مـن خمس سـنين مـن يـوم مـا عرفتنـي وبـدأت تعـدي مـن الشـارع ده وتسـاعدني بشـراء المناديل.

تقصـدي المعـاش ولا الحصـول علـى شـقة غرفـة وصالـة مـن المحافظـة.

الحمد لله إنك لسه فاكر يا مختار بيه، يارب يكرمك ويحقق لك اللي في بالك النهاردة وتحقق لي ولو أمنية من الاثنين دول وخاصة المعاش لأنك قلت لي إنه سهل وممكن تساعدني فيه وهاتكلم حد تعرفه في المحافظة.

طبعًا طبعًا يا أم محمد، ما تقلقيش، ده طلب بسيط، ادعي لي بس، قالها وهو يتحرك بالسيارة بعد أن تغيرت الإشارة إلى الأخضر.

ظل بال مختار مشغولاً طوال الطريق يفكر في خبر اليوم الذي سوف يغير مسار حياته إلى الأحسن أو ينساه الزمن إلى الأبد فهذه آخر فرصة له للترقي على هذا المستوى الكبير، حدث نفسه بأنه متفائل بكل خير فأم محمد دعت له اليوم كثيرًا عن دعوات كل يوم ومن أعماق قلبها خاصة أنه وعدها بتحقيق أمنيتها في الحياة وهي على الأقل المعاش.

نزل من سيارته وقلبه يرجف من القلق، ودلف إلى مكتبه منتظرًا رنين التليفون وعليه صوت المسئول الكبير ليهنئه بالمنصب الجديد الذي ينتظره على أحر من الجمر، فوجئ مختار بيك بتوافد الموظفين عليه يهنئونه بالخبر السعيد، ولم يصدق نفسه إلا وجرس تليفونه يرن والصوت المبجل يخبره بالخبر السعيد.

لـم يصـدق مختـار بيـك نفسـه وطـار مـن السـعادة فقـد تحقـق حلـم الحيـاة، وقضـى يومًـا مبهجًـا بـين موظفيـه وكل منهـم يحـاول أن يثبـت ولاءه لعلـه يكـون صاحـب حظـوة ونصيـب في العالـم الوظيفـي الجديـد الـذي سـوف ينتقـل إليـه مختـار بيـك، أنهـى العمـل متأخـرًا لإنهـاء الملفـات المفتوحـة ثـم لملـم حاجياتـه وعـاد بخبـر العمـر لأسـرته ليقيـم الاحتفـال الكبيـر.

وصلـت عربـة المحافظـة ليسـتقلها سـعادة السـكرتير العـام وسـلكت طريقهـا إلـى مبنـى ديـوان المحافظـة والسـتائر علـى نوافـذ العربيـة لـزوم الرسـميات والأمـن والأمـان. وقضـى أول أيـام عملـه في اسـتقبال المهنئين وباقـي اليـوم مـن اجتمـاع إلـى آخـر حتـى أنهـى اليـوم متأخـرًا وعـاد إلـى بيتـه بنفـس عربـة المحافظـة.

وكعادتهـا كل يـوم انتظـرت أم محمـد سـيارة مختـار بيـه قادمـة قبـل الإشـارة وهـو يمـد يـده مـن شـباك السـيارة بثمـن المناديـل وببعض النقـود الزيـادة ومعهـا ابتسـامته الراقيـة وطلبـه الدعـاء لهـا، ولكـن لـم تـأتِ سـيارة مختـار بيـك لا في الصبـاح ولا في العـودة، قلقـت عليـه أم محمـد كثيـرًا بعـد أن مـرت ثلاثـة أيـام دون أن تـراه فسـألت عليـه ممـن يسـكنون حـول بيتـه وعرفـت أنـه قـد ترقـى لمنصـب كبيـر لا يعرفـون مـا هـو ولكنـه انتقـل للعمـل في المحافظـة. فرحـت أم محمـد جـدًا بالخبـر

وحمدت الله أن استجاب لدعائها في تحقيق أمنية مختار بيه بهذه السرعة ولعلها تحققت لكي يحقق لها هي أمنيتها التي طالما أخبرها أنها بسيطة فمؤكد أنه الآن يستطيع تحقيقها طالما يعمل في المحافظة فأكيد يعرف المسئولين الكبار هناك.

وصلت أم محمد أمام ديوان المحافظة ولا تدري ماذا تفعل فكيف تجد مختار بيه، فمؤكد أن هنا أكثر من مختار بيه وهل يا ترى يعرفونه هنا جيدًا وهو منقول جديد، سألت الحارس الذي رد عليها بصعوبة، نعم يا ست لا يوجد هنا سوى مختار بيه واحد والذي انتقل إلى هنا الأسبوع الماضي كما تقولين ومكتبه في الدور السابع، اذهبي واسألي على الأستاذ مختار العربي، وقفت في الدور السابع أمام مكتب رئيس شئون العاملين كما دلوها، وبعد طول انتظار وإلحاح دخلت سمحوا لأم محمد بمقابلة مختار بيه، ولكنه لم يكن هو.

أنت مش مختار بيه اللي أنا عارفاه وعايزاه، هو واحد تاني، وبعد أن توصل الموظف إلى أوصاف مختار بيه الذي تقصده أم محمد فقط كحب استطلاع، ضحك وبخبث، هل تقصدي مختار باشا سكرتير عام المحافظ الجديد، أتعرفه شخصيًا؟! أيوه أعرفه وهو يعرفني كويس، أنا عايزة أقابله، ضحك الموظف مرة أخرى

ونظر إلى أحد مساعديه والذي على الفور أخرج أم محمد من مكتبه وتركها دون أن يدلها على مكتب مختار بيك.

ظلت أم محمد تسأل يمينًا وشمالاً عن مختار باشا حتى دلها أحد المنتظرين على مكتبه بالدور الثاني بجوار مكتب السيد المحافظ، ومشت إلى هناك متكئة على عصاها التي تألمت من صعود ونزول السلالم حتى وصلت أخيرًا إلى سلالم الدور الثاني، وتنفست الصعداء وانتعش قلبها وشعرت كأن ليلة القدر قد صادفتها فهي الآن قاب قوسين أو أدنى أن تقابل مختار بيك صاحب الأمر والنهي هنا كما أخبرها المنتظرون من الجمهور، ولكن للأسف لم يسمح لها الحارس بدخول بهو الدور الثاني بحجة الأمن وبحجة عدم وجود ميعاد سابق وبحجة عدم وجود كارت شخصي وبحجة انشغال سيادته في أعمال واجتماعات مع السيد الوزير المحافظ، وعبثًا حاولت أم محمد أن تقنع الحارس بأنها تعرف مختار باشا جيدًا وهو أيضًا يعرفها جيدًا، وبعد أن رأى الحارس الدموع في عينها والحزن يملأ وجهها رق قلبه وطلب منها أي علامة يستطيع أن ينقلها إلى سكرتير مختار باشا لعله يوافق أن يقابلها، قوله أم محمد بتاعة المناديل والدعوات الطيبة.

وبعد مجهود وإلحاح من الحارس وكأنه تبنى قضيتها وكنوع من المجاملة الوظيفية، وافق سكرتير مختار باشا في النهاية بأن تقابله بعد ساعة من الآن وعلى الواقف نظرًا لانشغاله الشديد راجيًا ألا يعاقب اليوم منه على تصرفه الجريء والغير محسوب هذا. انشرح قلب أم محمد ورقص على أمل اللقاء، وانتظرت وانتظرت حتى مرت ثلاث ساعات وما زال الأمل يرقص بين ضلوعها من شدة الفرح بأن تقابل مختار باشا. اتفضلي يا حاجة معايا ندخل سوا لمختار باشا.

وما إن رأته ودون أن تنتظر مختار باشا أن ينهض من على كرسيه الوثير أو يمد يده ليسلم عليها حتى أمطرته بدعواتها الطيبة التي تعودت عليها بل زادت عليها الكثير، نهض مختار بيك من على كرسيه وشكر أم محمد وطلب من سكرتيره الخاص أن يتركه معها لدقائق وطلب منها أن تجلس على الكرسي الذي أمامه ولكنها أصرت أن تبقى واقفة.

تحت أمرك يا أم محمد، خير.

أنت حضرتك عارف أنا جايا ليه يا مختار بيه، نفسي تحقق لي أمنيتي على الأقل المعاش زي ما وعدتني وأنا يعلم ربنا دعتلك من قلبي قد إيه علشان ربنا يرقيك ويزيدك، وأهه ربنا استجاب لدعوتي ويمكن بسببك ربنا يحقق أمنيتي.

تحت أمرك يا أم محمد، بس أنتِ عارفة طلبات الناس كثير والدولة بتمر بظروف صعبة ومفيش ميزانية متوفرة اليومين دول للمعاشات وأول ما تيجي فرصة أنا تحت أمرك بس اكتبي طلب وسيبيه عند الموظف المسئول عن المعاشات في الدور الخامس.

بس يا مختار بيه أنت وعدتني إنك تساعدني وأنت دلوقتي المسئول وأنا المعاش اللي طالباه مش كثير دول حوالي ١٥٠ جنيه في الشهر يساعدوا مع بيع المناديل.

للأسف يا أم محمد، ظروف البلد صعبة ودي اللوائح والقوانين. مع ألف سلامة وما تنسيش تدعيلي.

إن شاء الله هادعيلك وكمان هادعي للبلد المرة دي يمكن ظروفها تتحسن وتديني معاش، ربنا ما يحوجك لحد يا مختار بيه ولا تكون بياع مناديل.

لملمت أم محمد أذيال الخيبة وتوكأت على عصاها ومشت بين صمتها الذي لفها حتى وصلت إلى المخبأ الذي تعيش فيه مع أحفادها وقررت ألا تبيع مناديل حتى لا تباع دعواتها الطيبة. وعاشت أم محمد أيامًا صعبة تقتات على ما تبقى من بيع المناديل ومن الجنيهات التي كانت تجمعها لمثل هذا اليوم، ومر شهران وكادت أن تجوع وما زالت مصرة على عدم بيع المناديل بالرغم

من شدة الحاجة وإلحاح الأحفاد، ولكنها أبت وبشدة أن تعود لبيع المناديل فقد كرهت أن تباع دعواتها.

وفجأة دق الباب لتفتحه على استحياء، إزيك يا أم محمد، مبروك عليكي المعاش اتوافق عليه مبروك، أنتِ مش فاكراني.

لأ يا حبيبي أنت مين ومعاش إيه مش مختار باشا طردني بالذوق واتبرا مني، معاش إيه بقى.

يا أم محمد أنا الحارس اللي ساعدتك يومها واتحايلت على السكرتير لحد ما دخلك لمختار باشا.

طيب إزاي اتوافق على المعاش بتاعي وأنا ماقدمتش الطلب اللي قالي أسيبه في الدور الخامس عند موظف المعاشات.

أنا عارف يا أم محمد بس أنا اتعاطفت مع حالتك يومها وعملت اللازم وقدمت طلبك من غير ما أقولك من المعلومات اللي سيبتيها عند السكرتير وتابعت الموضوع بعلاقاتي البسيطة هناك لحد ما خلص من غير ما مختار بيه ياخد باله والكل عارف إنك قريبتي.

يعني أنا بجد اتوافق على المعاش وهاقبضه من الشهر اللي جاي، الحمد لله ده أنا كنت خلاص مفيش أي فلوس لأني ما ببعيش مناديل من شهرين.

أيوه يا أم محمد، ودي الموافقة جبتهالك وهاتقبضي كمان من الشهر ده مش من الشهر اللي جاي، ويارب كده تكوني مبسوطة وما تحتاجيش لحد ولا تكوني بياعة مناديل.

شكرًا يا ابني قوي، بس ممكن أعرف عملت كده ليه وأنت عارف ماعنديش حاجة أديهالك.

أنا مش عارف أنا عملت كده ليه بس حبيت أساعدك وبقوة وبرضه مش عارف ليه، لكني مبسوط إني عملت كده ومش عايز منك إلا الدعوات الطيبة ومنديل أشتريه منك كل يوم لما تنزلي للشارع تبيعي تاني.

سهلة يا ابني أوعدك أنزل أبيع مناديل تاني ولك مني كل الدعوات الطيبة لحد ما أموت. فعلاً إذا كان المثل بيقول اعمل الخير وارميه البحر أنا بقول قول الدعوات وارميها البحر.

وقررت أم محمد أن تعدل عن رأيها وعادت لبيع المناديل في نفس الشارع عند الإشارة وعادت لتوزيع دعواتها المجانية المخلصة لكل من يمد يده ليشتري المناديل، الدعوات التي لا تباع ولا تشترى. ولم تندم أم محمد على دعواتها لمختار بيه بل أصبحت أكثر حرصًا على الدعوات لكل الناس وكأنهم جميعًا مختار بيه، وآمنت أم محمد أن الدعوات حين تتحقق لا تتنكر لداعيها حتى

ولـو تنكـر طالبهـا، أبـدًا الدعـوات لا تمـوت ولا تترمـل بـل تسـري كالنسيم العليل في دائرة حتى تعود لصاحبها ليتنفسها ويحيا بها.

وعاشت أم محمد بين أحفادها وهي صاحبة العزة، صاحبة المعاش والدعوات لا تفارق لسانها حتى وافتها المنية وهي راضية بعد ثلاث سنوات وبعد أن دعت لمختار بيك كثيرًا حتى بعد طلوعه على المعاش وشرائه المناديل منها مرة أخرى قبل الإشارة فيكفي أنه كان سبب المعاش.

●●●

ملل المشاعر

«كل منـا لديـه غـدد للمشـاعر تفـرز مشـاعر فـي كل زمـان ومـكان ولكـن أحيانًـا تجـف الغـدد مـن المشـاعر أو تحبـس المشـاعر وأحيانًـا لا تـدري النفـس مـاذا تفعـل بالمشـاعر؟ حينئـذ تبحـث عـن إنـاء لتصـب فيـه المشـاعر، ولكـن للأسـف تبحـث بعيـدًا مـع قـرب الإنـاء منهـا».

وعلى آخر يوم العمل الذي امتلأ بأحداث منها ما كان يتوقعه ومنها ما فوجئ به كسيول من أمطار جارفة فجأة من سماء ليل صاف، شعر وكأنه امتلأ عن آخره بألواح من ثلج الوحدة التي تجمدت عليها حروف الكلمات في عقله وعلى أطراف لسانه، نظر إلى المكان من حوله فلم يجد إلا نفسه قابعًا بين أكوام الملفات المبعثرة على مكتبه وشاشة الكمبيوتر التي لم يطفئها بعد. انتابته حالة من الملل المغلفة بالوحدة فتملكه الكسل حتى أن يرتب الملفات أو يطفئ الكمبيوتر وأمسك بحقيبته بتلقائية دون أن يدري وقرر أن يترك هذا المكان الموحش الذي كان يعج منذ قليل بزحمة الناس ليجد نفسه دون أنيس يملأ عليه باقي يومه بعد انتهاء العمل.

قـرر أن يمشـي ويتـرك كل شـيء علـى حالـه حتـى لا يزيـد ترتيبـه للأشـياء وعودتهـا إلـى حالهـا شـعور الوحـدة الـذي كاد أن يجمـد أنفاسـه، قـرر أن يسـير علـى قدميـه ويمشـي بـين النـاس وحقيبتـه هـي أنيسـه. أعجبتـه الفكـرة جدًا وشـعر أنـه قـادم علـى مغامـرة الفرجـة علـى البشـر ليخـرج مـن وحدتـه ويكـون واحـدًا مـن النـاس يحتمـي بهـم مـن شـعور وحـدة قاسـية لـم يشـعر بهـا مـن قبـل مثـل اليـوم، جـن جنونـه بالفكـرة وقـرر أن ينفذهـا وأن يترجـم لغـة شـفاة النـاس كمـا تعلمهـا أثنـاء دراسـته دبلومـة تخاطـب الشـفاه، قـرر أن يفعـل ليعـرف مـا يقولـه النـاس دون الحاجـة بـأن يسـمعهم.

ألقـى بعينيـه علـى شـاب هنـاك يمشـي الهوينـة يتكلـم مـع شـاب آخـر يمشـي بجـواره، ترجـم وترجم وسـجل اعترافات الشـاب لصديقه بمـدى الوحـدة التـي يشـعر بهـا بعـد فـراق أبويـه وكيـف أن العالـم حواليـه تغيـر إلـى النقيـض حتـى مـن أصحـاب وأقـارب والـده، قـرر أن يبعـد عينيـه عـن شـفتي هـذا الشـاب ويبحـث عـن غيـره مخافـة أن يزيـد مـن شـعور الوحـدة لديـه.

ألقـى عينيـه علـى طفـل بـين العربـات يحـاول أن يمسـح زجـاج بعضهـا في الإشـارات وهـو يتمتـم بشـفتيه كلمـات كادت أن تدمـي قلبـه فقـرر أن يتـرك شـفاة الطفـل اليتيـم ويبحـث عـن شـفاة أخـري لعلـه يجـد أحـدًا مـا هنـاك لا يشـتكي مـن قسـوة الوحـدة، بحـث وترجـم

كثيرًا من الشفاه ولم يجد ما يصبو إليه، وبقدر ما حزن من هذا الشعور العام بوحدة الناس في دنياهم بقدر ما أدخل عليه بعض الطمأنينة فهو أيضًا ليس وحده الوحيد في هذا العالم.

أبعد عيناه عن كل الشفاه وألقاها ناحية السماء الواسعة حتى لا يشغل عيونه بشفاه البشر. حلق في الفضاء فوجد الشمس تغرب وحيدة والقمر قادم يطل على الشفق وحيدًا، وعلى النجوم ليجد كل نجمة في دائرتها وحيدة. ماذا يعني هذا؟ أجبلت الحياة على الوحدة والعطاء دون شكوي؟ فالشمس وحيدة ومع ذلك تبعث بأشعتها كل صباح في كرم بالغ، والقمر وحيد ولكنه يرسل انعكاس أشعته برومانسية حالمة، والليل وحيد والنهار وحيد وكل شيء حوله يبدو وحيدًا، تعجب من هذه الوحدانية التي تلف العالم ولكن كل جزء فيها يشارك بكرم وعطاء.

وهو ما زال يبحر في أفكاره ويقوي نفسه بشعور العطاء، أفاق على صوت قادم يصيح من هناك من جانب المسجد العتيق بمقام الشيخ المبروك، وحدوووووه. ابتسم وبتلقائية حرك شفتيه لتردد وحدانية الله ليشارك شفاة المارة التي قرأها هذه المرة وكأن شفاه العالم تجمعت في شفتيه اللتين اجتمعتا سويًا لتقص حكايات دواخل نفسه.

نظـر هنـاك علـى جانـب الشـارع ليجـد رجـلاً عجـوزًا يحـاول جاهـدًا أن يعبـر الشـارع، تقـدم إليـه مبتسـمًا وأمسـك بيـده وقـرر أن يكون ضيفـه هـذا المسـاء، استجاب الرجـل بتلقائيـة وكأنـه ينتظـر ذلـك اللقـاء منـذ مولـده، تأبطـه بحنـان ومشـيا حتـى وصـلا إلـى ركـن الحـارة العتيـق، وكانـت أحلـى الأمسـيات التـي شـعر فيهـا بأنـه توسـط ميـدان نفسـه والعالـم كلـه يسـمع شـفتيه بـآذان هـذا الرجـل العجـوز الـذي مـلأ عليـه فضـاء نفسـه.

ومـن بعـد هـذه الأمسـية التـي نقشـت جمـال الإنسـانية في قلبـه قـرر أن يكـون مضيافًـا، فمـا أحلـى وحـدة النفـس عندمـا تشـارك الآخريـن وحدتهـم بعطـاء ولـو بعيـدًا عـن حبيبتـه التـي هجرتـه.

●●●

أمير على باب اللّه

«قد يسرق من الناس أمتعتهم وأموالهم وأوقاتهم، وقد تسرق أجسادهم، وقد تسرق سعادتهم، وقد تسرق كلماتهم، ولكن لا تسرق منهم أبدًا أحلامهم في الحب».

بعد عناء يوم طويل وكأن عدد ساعات نهاره زادت عن الألف ساعة، رجع سهيل إلى عشه البسيط المكون من حجرة واحدة بها كل مكونات الحياة المتقشفة عن عمد بعد أن قرر أن يأخذ أجازة مفتوحة من عيش الحياة الناعمة التي لازمته طوال عمره الأربعين.

ألقى بجسده الفارع بمنكبيه العريضين على حصيرة الراحة بركن الغرفة واضعًا رأسه على الأرض تجاه القبلة وقدميه على جدار الغرفة ليريحهما من الإجهاد جراء السعي ذهابًا وإيابًا في المحجر حاملاً على كتفيه حصاد الصخور التي تم تفتيتها ليبحث فيها أهل المال عن الماس والذهب بعد تكسير الصخور المشتبه في غنائها بهذه العناصر الثمينة.

ألقـى سـهيل بجسـده المتعـب علـى الحصيـرة دون أن يعبـأ بالتـراب العالـق عليهـا مـن أثـر العمـل في المحجـر طـوال النهـار بـلا توقف مـا عـدا سـاعة الغـداء التـي يلتهـم فيهـا مـا يُسـكت بـه صيحـات معدتـه الخاويـة مـع كثيـر مـن المـاء البـارد الـذي يلطـف بـه حـرور جوفـه الملتهـب مـن حـرارة شـمس الصيـف الحارقـة، ألقـى بعينيـه إلـى سـقف الغرفـة محدقًـا في الأشـعة الصـادرة مـن لمبـة الإضـاءة في كل الاتجاهـات لتنيـر ظلمـة وحدتـه التـي طلبهـا لنفسـه بعـد أن كان مجلسـه مهبـط الـوزراء والشـعراء ورجـال المـال والأدب والقضـاء.

حـدق سـهيل في الأشـعة التـي يعجـب بهـا كثيـرًا وبقدرتهـا علـى ذوبـان الظـلام وتلوينـه بالضيـاء بـلا ضجـة أو ثـورة أو شـكوى مـن احتـراق المصبـاح، تذكـر كيـف كانـت هـذه الأشـعة هـي السـبب في تحويـل مجـرى حياتـه طواعيـة مـن الأميـر المنعـم إلـى العامـل البسـيط المجـد الـذي لا يـكل مـن العمـل، ليـس فقـط ليكسـر شـوكة الإمـارة في قلبـه ولكـن أيضًـا ليتـذوق طعـم العمـل الـذي طالمـا قـرأ عنـه في القصـص والروايـات دون أن يتعـرف عليـه علـى أرض الواقـع، تذكـر كـم ألهمـه هـذا الضيـاء الصـادر مـن المصبـاح أن يتـرك مجالـس الأمـراء ويسـيح في الأرض للعمـل بـين بسـطاء الحيـاة يتعلـم منهـم ويتعلمـون منـه كيـف تكـون الحيـاة علـى البسـيطة.

شتان ما بين ضياء مصباحه هذا وبستان المصابيح الكهربائية من كل شكل ولون التي كانت تزين حجرته أينما حل وأينما ذهب في قصر الإمارة الذي بناه له والده على شكل شمس تشع ضياءها في جوانب المدينة على هيئة بيوت الرعايا حول قصره الذي لا ينطفئ نوره ليل نهار، تذكر كيف كان ينظر إلى أشعة مصابيح قصره كلما نظر إلى سقف غرفته ليتدبر أمر ما فلا تلفت انتباهه ولا تأخذه عما يفكر فيه.

لكن سهيل تذكر جيداً هذا اليوم الذي خطفت هذه الأشعة انتباهه فجأة بعد أن انطفأت وسط الليل ولم يكن بجواره أحد يؤنسه فانتابه فزع روعه وملأ قلبه في لحظات قليلة حتى هرع إليه الخدام والحراس ليضيئوا له المشاعل حتى يتم إصلاح العطب الغير متوقع نتيجة لسيول المطر التي هاجمت المدينة ودمرت على غفلة الكثير من البيوت الضعيفة المبنية من الطوب اللبن.

كان يومًا عصيبًا تحول فيه سهيل مرة من أمير مسالم إلى أسد يزأر ومرة أخرى إلى قطة تموء والخدام لا يعرفون ماذا يفعلون في تصرفاته المتقلبة تلك وهو ينظر في أشعة المصابيح متنقلاً ببصره من واحد تلو الآخر ومحدثًا نفسه بصوت عال كيف تفعلين بي هذا أيتها المصابيح بأشعتك التي تقطع وتمزق

عقلـي الآن كسـيوف نصلهـا مـاض؟! ولـم يـرتح الجميـع إلا بعـد أن ذهبـوا عنـه تنفيـذًا لأوامـره أن يتركـوه مـع نفسـه ومـع تلـك المصابيـح.

كـم كان يومًـا عصيبًـا تعلـم فيـه مـن تلـك الأشـعة حيـاة أخـرى ومشـاعر أخـرى وعالـم آخـر اسـمه الظـلام الدامـس القـادر علـى بـث الخـوف والرعـب في قلـوب الأمـراء. يتذكـر كـم شـعر سـاعتها بأنـه ليـس أميـرًا حقيقيًـا بـل مجـرد اسـم لا يعـرف مـن حقـوق الإمـارة شـيئًا. ابتسـم في نفسـه وهـو يتذكـر أحـداث الحلـم الجميـل الـذي عـاش أحداثـه بعـد أن خـر علـى سـريره مغشـيًا عليـه مـن الإعيـاء مـن طـول النظـر في مصابيـح غرفتـه.

ورأسـه ملقـاة علـى الأرض بغبارهـا وقدميـه علـى الجـدار، تـرك سـهيل لعينيـه العنـان في اسـترجاع أحـداث هـذا الحلـم الرائـع الـذي دارت أحداثـه في سـفينة في عـرض بحـر هائـج تلاطمهـا الأمـواج العاليـة مـن كل اتجـاه والنـاس عليهـا في حالـة رعـب وخـوف وهلـع شـديد مـن غـرق السـفينة وابتلاعهـا بجبـال الميـاه القارصـة البـرودة دون أن يشـعر بهـم أحـد.

وبالفعـل هـرع النـاس إلـى سـطح السـفينة في هـرج ومـرج طالبـين النجـاة والغـوث ومعهـم الربـان ولكـن بـلا فائـدة، ووسـط اندفـاع الجمـوع وجـد نفسـه ودون أن يـدري فـوق ربـوة عاليـة ينـادي في النـاس

بصـوت منخفـض خاصـة أنهـم أنصتـوا إليـه مـع أن صوتـه كان غيـر مسـموع بالرغـم مـن أنهـم لـم ينصتـوا إلـى الأبـواق الأخـرى التـي تنـادي مـن كل مـكان بالتـزام الهـدوء والنظـام.

تعجـب سـهيل أكثـر عندمـا وجـد نفسـه وأيضًـا دون أن يـدري متوجهًا نحـو كابينـة قيـادة السـفينة وكأنـه مأمـور ولا يعـرف مـن أمره وحولـه ربـان السـفينة ومعاونيـه ليفاجـأ الجميـع بهـدوء البحـر بمجـرد أن بـدأ في إدارة لوحـة التحكم وكأنـه ولـد قبطـان. وفي نفس اللحظـة التـي هـدأ فيهـا البحـر هـدأ النـاس وسـطعت الشـمس واحتفـل النـاس بفرحـة النجـاة وهللـوا ورقصـوا وغنـوا وأخـذوه مـن يديـه إلـى سـطح السـفينة ليحملـوه علـى الأعنـاق وهـو غيـر مصـدق لما يحـدث.

تذكـر تلـك اللحظـة الخالـدة التـي لـن ينسـاها في هـذا الحلـم والتـي يتمنـى أن يعيشـها ولـو في حلـم آخـر ليحتسـي حـلاوة المشـاعر التـي عاشـها كالدهـر في تلـك اللحظـة التـي وجـد يديـه حـول كفـين مـن حريـر همـا لحوريـة سـكنها الجمـال والحسـن في كل مـكان، في عينيهـا وشـفتيها ووجنتيهـا وكفيهـا وأناملهـا الرقيقـة، كادت يـداه أن تـذوب في كفيهـا وهـي تضغـط عليهمـا بحنـان وقـف لـه قلبـه يعلـن عـدم قدرتـه علـى تحمـل كل هـذا الحسـن.

فجـأة انقلبـت ابتسـامته إلـى امتعـاض فجـذ عليهمـا عندمـا تذكـر أن هـذه اللحظـة هـي نهايـة الحلـم الـذي كـم تمنـى أن يكملـه حتـى نهايتـه ليتنعـم ﵟ جمـال وحسـن وحـلاوة تلـك الفتـاة وحنـان كفيهـا وليعـرف مـن تكـون ومـن أيـن أتـت وكيـف لـه أن يعبـر عـن مـدى إعجابـه الـلا متناهـي بهـذا الحسـن الـذي مؤكـد أنـه كان السـبب ﵟ هيجـان وهـدوء البحـر بـين انقلابهـا ورضاهـا عـن النظـر إلـى موجـه، كـم تمنـى أن يكـون هـذا الحلـم هـو الواقـع، هـو الحيـاة التـي يعيشـها بـلا إمـارة وبـلا خـدام أو حـراس أو آلاف المصابيـح، وكـم تمنـى أن يـرى مثـل تلـك الفتـاة ولـو صدفـة هنـا أو هنـاك ﵟ قصـره بـين خدمـه أو ﵟ شـارع أو حـارة ﵟ مدينتـه وإمارتـه فقـط لتكـون أميرتـه ويكـون خفيرهـا، فقـط ليعتـرف لهـا بحبـه لنظراتهـا وعشـقه لملمـس حنـان كفيهـا وجنونـه بـدفء أنفاسـها التـي هـي شـهيق كل المحبـين.

تذكـر سـهيل وتذكـر وتذكـر دون أن يعـي أن عينيـه مازالـت تحـدق ﵟ سـقف الحجـرة وهمـا معلقتـين علـى أشـعة المصبـاح الوحيـد الـذي يتوسـط غرفتـه، فلـم يشـعر إلا وعينيـه زائغتـين مـن شـدة ضـوء المصبـاح فأغمضهمـا غضبًـا عنـه ومـن الإجهـاد والتعـب وتـرك النـوم يتلاعـب بهمـا يمينًـا وشـمالاً حتـى سـكنت العيـون تمامًـا ﵟ لحظـات وهبطـت قدمـاه مـن علـى الحائـط ومالـت رأسـه المتعبـة علـى الأرض وسـقطت يـداه بجـوار صـدره ووسـطه تناجـي الراحـة وعلـت وهبطـت

أنفاسه بهدوء وسكينة في صدره وابتسامة عريضة تملأ شفتيه وروحه معلقة في شوق إلى نهار يوم جديد.

●●●

طرد الحياة

«الأب أقحوانة والأم ريحانة وإن قطفهما الموت تبقى رائحتهما المعطرة ملء الأنف والنفس حتى الممات، رائحة تتجدد وتبدد عفن قد تصنعه الحياة».

الشمس حارقة وسط النهار كأنها تقف على الرءوس وتلهبها بأشعة حارقة كأنها عقاب على كسل الناس وسخطهم على نمط الحياة، هكذا وصف كامل منظر الناس من بعيد وهو جالس على الأريكة الخشبية على جانب الطريق المزدحم بالناس والعربات والعجلات وكأن الأرض جذبت الجميع على سطحها ولا يستطيعون التحرك من شدة الزحام.

ابتسم كامل ابتسامة رضا ترسمها شفاه ساخرة، ابتسامة رضا على أنه هنا ليس الآن وسط هؤلاء الناس المعذبون في الأرض وسط هذا الزحام اللعين... وشفاه ساخرة على هذا المنظر الفلكلوري الذي يحتاج إلى فنان لوحات سريالية بخطوط معناها في الفوضى التي ترسمها والتي يعجز فنانو التشكيل على رسم ألوانها وتفاصيلها، ويجلس كامل بطريقة فيها عظمة وكبرياء وهو

يضع رجلاً على الأخرى وكأنه يشمت في تلك الجموع الحائرة في شوارع المدينة وهو هناك قابع يشاهد من بعد.

وفجأة وقف كامل وكأنه نسي شيئًا مهمًا في وسط مشاهدته لهذا الزحام، نسي أنه ترك المنزل سريعًا ليذهب إلى مكتب البريد الذي بنهاية الشارع الذي به منزله ليتسلم طردًا قد علم به من الإشعار الذي وصله على البيت أمس، تذكر كامل ذلك مرتبكًا ومتمتمًا في نفسه كيف يكون نسي ذلك، فهذا الطرد من الممكن أن يكون مبلغًا كبيرًا من المال من والده الذي يعمل بدولة عربية منذ سنين، أو من الممكن أن يكون تأشيرة حلمه لدخول أوروبا والعمل هناك لتكون نهاية عذابه في السلسلة المريرة التي يتعلق بحلقاتها أملاً في أن تحط قدماه تلك البلاد البعيدة عن عينيه القريبة إلى خياله، وقد يكون الطرد خطاب شوق مع هدية من حبيبته التي هي الأخرى في الجانب الآخر من صعيد مصر حيث تعمل مترجمة للأفواج السياحية.. وقد يكون هذا الطرد خطاب قبوله في وظيفة النائب العام التي ما انفك يحلم بها ليل نهار ليكون ذا جاه وسلطة ومرتب كبير يعينه على غلاء الحياة ومتاعبها.

عندما تذكر كامل كل ذلك وما قد يجلبه إليه هذا الطرد أي جانب من جوانب السعادة التي ينتظرها انتابته حركة خفيفة لا

يقصدها بضربة بيده على جبينه ثم أطلق أرجله لتأخذ طريقها إلى المشي والانتقال من مكان الرصيف وهو مدرج المشاهدين والمتفرجين إلى الشارع الذي كان منذ دقائق يمثل مشهدًا تمثيليًا حيًا في حفلة عرض مجانية وهو المشاهد الملك الوحيد.

نزل الشارع مسرعًا مطلقًا رجليه كأنها محرك طائرة تحلق في السماء، وعندما انغرس وسط الجموع سمع هتافات كثيرة وأناشيد حماسية من الصغير والكبير فهم منها أن هذه الجموع ما هي إلا مظاهرات ضد الفساد، ولم يلتفت كامل لتلك الهتافات ولم يلقِ بها بالاً حتى لا تثنيه عن الطرد وظل يلهث في المشي متخللاً الجموع من الناس والعربات بطريقة بهلوانية حتى أصبح يتصبب عرقًا من جبينه وكأنه ويده شراع وجسده نحو مكتب البريد الذي به ذاك الطرد الذي ينظر إليه وكأنه طرد الحياة.

أخيرًا وصل كامل مكتب البريد قبل ميعاد قفل الباب بدقيقتين.. فتنفس الصعداء وابتسم ابتسامة عريضة تكاد تتحول إلى ضحكة بها عظمة وكبرياء لتمكنه من الوصول إلى هدفه المنشود وهو طرد الحياة قبل فوات الأوان وقفل الباب وخاصة أن اليوم هو الخميس وهو آخر يوم من أيام شهر رمضان قبل الجمعة اليتيمة وأجازة العيد الطويلة.

ودخل كامل على شباك استلام الطرود واستلم طرده بإعجاب ورضى شديد ولم يستطع الإفطار حتى يعود للبيت ليرى محتوى الطرد ويسعد به ففتحه عن شغف ليرى أي طريق من طرق السعادة سوف يأخذه طرد الحياة هذا.. وفتح الطرد ليقرأ الرسالة التي تقول: «البقاء لله في والدك والذي ندعو له بالرحمة وندعو لك بالعزاء وعلى أن تقوم بدفع رسوم جثمانه إلى مصر بأسرع وقت ممكن وأن تدفع الدين الذي عليه لمكان العمل.. بوركت ابنًا مثاليًا ودافعًا لدين أبيك».

هذه هي الرسالة التي قرأها كامل في طرد الحياة الذي أصبح في أقل من ثانية طرد الموت ونهاية الحياة لكامل فلا هو قادر على تحمل نفقات نقل الجثمان ولا هو يملك أيًا من دين والده رحمه الله.. ولا هو قادر على حمل أرجله التي كانت منذ دقائق منطلقة في الشوارع كمحرك طائرة، ويخر كامل على الأريكة في صالة الانتظار في المكتب البريدي ليصبح المشاهد والممثل الوحيد لرواية نسجتها أفكاره وأحلامه، بلا سند في واقع الحياة ليكون كامل رمزًا لمن يهوى مناجاة الحياة وهو جالس على أريكة.

●●●

موعد مع الذكريات

«يمـر الزمـان سـريعًا ويتخطـى الأمنيـات تـاركًا وراءه بقايـا ذكريـات تصحـو وتنـام لتلهـي العقـل وتلطـف القلـب عمـا فـات، ويمضـي الزمـان ولا يعبـأ وتنـام الذكريـات».

لـم يـدرِ لمـاذا طـرأت إليـه فكـرة الذهـاب إلـى قريتـه ومسـقط رأسـه هـذا المسـاء مـع أن جـدول أعمالـه صبـاح الغـد مشـغولاً عـن آخـره، حـاول أن يثنـي نفسـه عـن الفكـرة ولكـن لـم يسـتطع بالرغـم مـن أنـه اعتـاد وبسـهولة أن يعتـذر عـن كثيـر مـن دعـوات الزيـارة مـن أصدقائـه وأسـرته وأقاربـه بحجـة انشـغاله بالعمـل، وأخيـرًا انقـاد وراء قلبـه وعقلـه اللذيـن اتفقـا عليـه ولأول مـرة.

ركـب سـيارته وبتلقائيـة لـم يشـأ أن يسـتمع لكوكتيـل الأغانـي المسـجلة علـى «الفلاشـا» كمـا تعـود بـل أدار الراديـو ليسـتمع إلـى أغانـي الزمـن الجميـل كمـا يسـميه. تذكـر كـم كانـت السـعادة تمـلأ قلبـه عندمـا كان يركـب سـيارته القديمـة وبجـواره زوجتـه وخلفـه أولاده يتهامسـون مـرة ويصيحـون مـرة ويضحكـون مـرة وهـو يقـود السيارة وكأنـه يقـود العالـم كلـه إلـى بيـت والـده الـذي كان يمثـل كعبـة

الأسـرة وهـو الحجـر الأسـود يتجمعـون عنـد وصولـه حتـى ولـو كانـت هنـاك خلافـات كبـرى بـين الجميـع، كـم تـروق لـه هـذه الذكريـات وكـم يتمنـى أن يعـود بـه الزمـن إلـى الـوراء ليعيشـها ثـم يعـود مـرة أخـرى إلـى وحدتـه التـي أخذتـه مـن كل مـن حولـه سـواء عـن عمـد أو بـدون قصـد.

الطريـق إلـى بلدتـه مظلـم القيـادة فيـه ليـلاً غيـر آمنـة، إلا أنـه اسـتمتع بـكل لحظـة فيهـا تذكـره بزيـارات الماضـي فقـد كان هـذا الشـاب الـذي يـرى طريقـه أمـام السـيارة بطموحاتـه وأحلامـه فيشـق الطريـق بثقـة كبيـرة مـع ابتسـامته المعهـودة والتـي لا تفـارق شـفتيه، دمعـت عينـاه وهـو يسـتمع إلـى أغنيـة نجـاة الصغيـرة وهـي تشـدو «في وسـط الطريـق» ومـن بعدهـا صـوت فايـزة أحمـد الدافـئ وهـي تغنـي «بيـت العـز يـا بيتنـا». توالـت الأغانـي الجميلـة ومنهـا أحضـان الحبايـب لعبـد الحليـم وغيرهـا مـن أغنيـات قديمـة كل منهـا تذكـره بموقـف معـين عاشـه في قريتـه في سـن الصبـا وكأن الراديـو هـو الآخـر اتفـق عليـه مـع عقلـه وقلبـه، راقـت لـه كل الأغانـي ودنـدن معهـا حتـى مـع أغنيـات عمـرو ديـاب وإليسـا وأصالـة التـي لا يحفـظ الكثيـر مـن كلماتهـا، وأخيـرًا وصـل إلـى مدخـل البلـدة في ليلـة دامسـة الظـلام.

وقف على أعتاب القرية وكأنه يقف على أعتاب الكعبة المشرفة ولطمته مشاعر لم يستطع وصفها. تعجب كيف لكل هذه المشاعر أن تنتابه مع كل نبضة لدمه لترفع قلبه إلى أم رأسه مع نبضة ثم تخفض به إلى قدميه مع نبضة أخرى، صحيح أنه قد غاب فترة طويلة عن البلدة، وصحيح أن له ذكريات الطفولة والصبا وبداية الشباب فيها والمفعمة بالأحداث المحفورة في قلبه وعقله وعلى نتوءات كثيرة على جسده، إلا أنه لا يعرف سببًا لهذه المشاعر المفاجئة والتي هبت على قلبه كرياح الخماسين تعصف به يمينًا وشمالاً كعود قصب يقف وحده عاريًا في حقل حل عليه ظلام دامس.

قرر أن يركن السيارة على مدخل القرية ويمشي دون أن يراه أحد حتى تكتمل لديه هذه الأمسية الزمنية التي تغوص بأحداثها في قلبه.

تغيرت القرية كثيرًا وكبر الشباب وكبر الأطفال والصبايا وأصبحت القرية زحمة بالوجوه الجديدة التي لا يعرفها على الإطلاق والتي لم يعبأ بها فهي لا تختلف كثيرًا عن تلك الوجوه التي يراها كل يوم في عمله أو في شوراع مدينته، رؤوس ملآنة بنفس الأفكار وإن اختلفت قليلاً في طريقة التعبير أو الزي.

استهوته فكرة تَتَبُّع الوجوه القديمة والتي يعرفها تمامًا وكأنها لم تفارقة طيلة ٣٥ عامًا عندما كانت تلازمه في العمل والفسح والزيارات، كان من السهل التعرف عليها وإن بدت واهنة شاحبة ولفها العجز فتمشي كأشباح وهي لا تدري.

لم يستطع أحد التعرف عليه نظرًا لأنه غطى معظم وجهه بشال يحميه من البرد بالرغم من أنه كان يتمنى أن يوقف كل من يعرفه ليسلم عليه ويقول له لقد جئت اليوم من أجلك ولكنه آثر التخفي ليستمتع بأصحاب الزمن الجميل عن بعد حتى لا يفسد ود اللقاء الذي جاء من أجله ولو كانت حفنة من ذكريات الماضي.

تعجب كيف تكون الذكريات سببًا للشقاء أو السعادة، من يتحكم في تلك النقطة الفاصلة بين هذه المشاعر وتلك عندما تعصف الذكرى بالنفس، نظر إلى الناس الهائمين كل يحمل في رأسه عالمه الذي لا يدري به أحد وإن بدت بعض ملامحه على الوجوه والملابس والنظرات التائهة أو المريضة أو الباحثة عن شيء ما لا تعرفه، وضع يديه في جيوبه ومشى الهوينة متطلعًا من بعد على الناس وكله سعادة بأنه يمشي وسط الماضي الذي هَرِمَ جزء كبير منه.

وفجـأة وجـد مـن يمـد يـده إليـه بالسـلام وينـادي علـى اسـمه بحنـان شـديد : «إزيـك، فينـك مـن زمـان، غيابـك عُمْـرٌ». توقـف ونظـر إلـى الوجـه وإلـى اليـد ليـرى مـن أيـن يأتـي هـذا الصـوت المملـوء بالحنـين والـذي يعـرف حروفـه ونغماتـه بـل يعـرف الأحبـال الصوتيـة التـي تعزفـه، تملكـه العجـب وشـهق شـهقة التائـه في الصحـراء بعـد أن وجـد طريقـه مـع شـربة مـاء، إزيـك أنـتِ، فعـلاً عُمْـرٌ طويـل كان يمشـي بعيـداً . مـش معقـول ألاقيكـي كـده قدامـي مـرة واحـدة في لحظـة بعـد غيـاب هـذا العمـر.

ردت بـدلال أنـا وراك مـش قدامـك أنـت اللـي قدامـي ومـع ذلـك عرفتـك مـن خطوتـك، طيـب ممكـن أعزمـك علـى أي حاجـة ونتكلـم، للأسـف مـش هاينفـع ولادي ورايـا وأخويـا جـاي كمـان شـوية، توقفـت كلماتـه وسـلم عليهـا وشـدد في السـلام ونظـر في عينيهـا بعمـق وتمنـى لهـا الخيـر علـى أمـل أن يلتقيـا مـرة أخـرى، ردت بعيـون لامعـة، اللقـا نصيـب، مـين عـارف، أشـوفك بخيـر، ومـع السـلامة لأنـي في زيـارة لأهلـي وراجعـة القاهـرة في الصبـاح.

تركهـا غيـر مصـدق مـا حـدث، أهـذا هـو الدافـع الـذي دفعـه دفعًـا أن يأتـي هـذا المسـاء ليـزور قريتـه دون أن يعـرف السـبب؟! مـا أحـلاه مـن مسـاء ومـا أحـلاه مـن دافـع ومـا أحلانـي أن أسـتمع لنـداء

ذكرياتـي لأقابل فتاة أحلامـي، أقصد التـي كانت يومًا مـا أحـلامـي، شـعر بغصـة ـِف قلبـه ورعشـة بعقلـه علـى نسـيان نفسـه.

لـم يكمـل مشـواره وأزاح الشـال مـن علـى وجهـه ليسـلم علـى أحبائـه ويسـعدون بلقائـه وعـاد إلـى سـيارته وإلـى مدينتـه التـي أخذتـه مـن كل شـيء ورمتـه بعيـدًا ـِف أدغـال مزدحمـة سـرقت منـه حبيبتـه وعذريـة أفـكاره وبـراءة مشـاعره حتـى أصبـح مسـئولاً كبيـرًا يـرى النـاس كلهـا موظفـين لديـه.

أدار الراديـو مـرة أخـرى علـى نفـس محطـة الأغانـي ليجـد أم كلثـوم تغنـي ودارت الأيـام فابتسـم ودنـدن وهـاجـت مشـاعره واهتـز جسـده بسـعادة غامـرة لـم يعرفهـا قلبـه منـذ ثلاثـين عامًـا فقـد ذكرتـه زيارتـه ولقـاء اليـوم بأحلـى الذكريـات التـي تمنـى أن يسـجلها صوتًـا وصـورة ليشـاهدها كل مسـاء. حينئـذ فقـط قـرر أن يبـدل دوره مـن موظـف ـِف الحيـاة إلـى موظـف محـب للحيـاة.

●●●

أحلام وراء القضبان

«خرج يجر أذيال خيبة الأمل بقدميه ويحمل الحسرة في عينيه يبكي أحلامًا كانت تطير في سماء واقع عقله وقلبه فاكتشف أنها ليس لها مكان تهبط فيه على أرض الحياة».

أصبحت الأرض مغطاة بأكياس مملوءة بالمناديل الورقية والساعات الرقمية وزجاجات العطر والمسك والأحذية الخفيفة وأشياء أخرى من كل نوع وصنف وشكل ولون ولكن كلها تشترك في صناعتها الصينية وثمنها الرخيص، علت أصوات الصبية من الأولاد والبنات وهم في حركة دءوبة ومنتظمة في الميدان الفسيح ذهابًا وإيابًا في همة ونشاط على أمل أن يبيعوا أي من هذه الأشياء ليسدوا رمق معدتهم ولو بلقيمات بسيطة تغني عن التسول، أقبل دكتور فرحات من بعيد فهرع إليه بعض الأطفال عندما رأوه، فقد اعتادوا أن يشتري منهم بعض الحاجيات البسيطة ثم يداعبهم ببعض الكلمات وكأنهم أصدقاؤه المقربون ثم يلقي عليهم النصائح بالاستمرار فيما هم فيه دون أن يزدادوا نشاطًا ومسؤلية، يسعد الصبية كثيرًا بقدوم د/ فرحات فهو الوحيد الذي نظم حياتهم ببساطة وأرشدهم أيضًا ببساطة على أعمالهم هذه.

الصبية في أعمار مختلفة يعملون متفرقين ولكنهم كتيبة تعرف أدوارها خاصة في تمثيل مشاهد العجز أو الحاجة أو المرض أو الانكسار، أسلوب تمثيلهم وتسولهم يدل على ذكاء فطري يبث أشعته على المارة في الميدان فيلين قلبهم ويستجيبون لتسول الأولاد ولو بقروش قليلة، ومع إنكاره لما يفعله الصبية من تسول إلا أن د/ فرحات وجد فيهم سلبيات الحياة بكل أنواعها وأسبابها، رأى فيهم العيون والقلوب والعقول والأجساد التي تاهت وسكنت الميدان بلا عنوان.

قرر د/ فرحات أن يعود إلى الصبية بين الحين والأخر يتعامل معهم لعله قد يغير سلوكياتهم فقد اكتشف فيهم طيبة ممطورة في شقاوتهم وذكاءً بائنًا في طريقة تسولهم.

وبعد أن شعر د/ فرحات أنهم اطمأنوا إليه، عرض عليهم فكرته في بيع الأشياء التي يحتاجها المارة بالميدان وكما تتطلبه أوقات النهار وأن يعملوا سويًا وتحت إشراف أكبرهم وألا يعودوا للتسول مرة أخرى مهما حدث، ومع أن العديد من الصبية رفضوا فكرة د/ فرحات بل استهزءوا بها مرارًا حتى أن بعضهم أصبح يتحرش به إلا أنهم في النهاية اتفقوا على تنفيذ الفكرة ليروا إن كانت بالفعل تغنيهم عن السرقة.

بعد عمل متواصل ووضع العديد من الأفكار والآراء المختلفة انتهى د/ فرحات من إعداد النسخة النهائية للمشروع بعد ما يقرب من شهر كان يطمئن على الصبية فيه من وقت لأخر. طرح المشروع على الجهة التي يعمل بها للموافقة واتخاذ اللازم للتنفيذ، جعل في المشروع دورًا مهمًا لتنظيم عمل الصبية وكيفية تعاونهم ومظهرهم والتواصل الاجتماعي وإدارة عمليات البيع والشراء والتوفير وذلك من خلال دورات تدريبية قصيرة وطويلة الأمد. ولطرافة الفكرة والإبداع الفكري بخطواتها نال المشروع استحسان اللجنة المعدة لتقييم المشروع والتوصية بالدعم.

ملأت الفرحة وجه وقلب د/ فرحات فها هو قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الحصول على الدعم المالي للمشروع الذي سوف يقلب حياة هؤلاء الصبية رأسًا على عقب في خلال أيام معدودة بعد اعتماد الميزانية المخصصة.

بمجرد أن أنهى عمل اليوم وسماع هذه الأخبار السارة كاد د/ فرحات أن يطير إلى الميدان الذي يتجمع فيه الصبية ليطمئن عليهم ويمهد لهم فكرة المشروع. ظل طوال الطريق يفكر في كيفية عرض الخبر عليهم ومدى رد فعلهم، يا ترى هل يستوعبون ما يقول وينفذوه كما يريد لمصلحتهم وليكونوا نموذجًا يحتذى به للميادين الأخرى المنتشرة في البلاد؟؟!!

تغيـر الأولاد بالفعـل نوعًـا مـا عمـا قبـل، ولذلـك فمؤكـد أن المشـروع سـوف يوفـر لهـم الفرصـة الأفضـل لتحسـين حالهـم ويكونـون بعيـدًا عـن أيـادي البلديـة التـي تتعقبهـم والشـرطة التـي تطاردهـم حيث يمثل الميـدان الـذي تعـود هـؤلاء الصبيـة العبـث فيـه تحـدٍ كبيـر للشـرطة والبلديـة والذيـن إن كانـوا محقـين لحفـظ الأمـان في الميـدان فـإن الصبيـة أيضًـا يبحثـون عـن عيـش الحيـاة.

اقتـرب د/ فرحـات بسـيارته مـن الميـدان وقـد وصـل إلـى صيغـة بسـيطة ليعرضهـا علـى الصبيـة تمهيـدًا لعـرض المشـروع بالكامـل عليهـم بعـد ذلـك، تصـور كيـف تكـون فرحـة الأولاد عندمـا يعلمـون أن الهـدف الأساسـي للمشـروع هـو تحولهـم مـن مرتزقـة إلـى فريـق مهنـي محتـرف ومعتـرف بـه مـن البلديـة والشـرطة ليكونـوا نموذجًـا هـو الأول مـن نوعـه؟؟!!! ابتسـم د/ فرحـات وانتشـى وشـعر أنـه فـارس مغـوار اقتحـم حلبـة يتصـارع فيهـا الحـق مـع الباطـل فاسـتطاع أن يهـدي أصحـاب الباطـل إلـى الحـق فتوقـف الصـراع إلـى الأبـد.

الميـدان مزدحـم والنـاس جماعـات وفـرادى يتحركـون في كل الاتجاهـات وهـو لا يـرى الصبيـة وسـط هـذه الجمـوع الكبيـرة مـن متظاهريـن يرفعـون أعلامًـا ويمسـكون ميكروفونـات ويهتفـون بأعلـى الأصـوات وكأنهـم يحاربـون عـدوًا بالحناجـر وهـم لا يـرون إلا خيالاتـه.

ازدادت الأعداد في الميدان وارتفعت الهتافات مدوية في حماس منقطع النظير يعلو ويهبط ويتشابك ويختلط كل بتوجهات مختلفة مع تراشقات وتصادمات كلامية وفجأة ساد الهرج والمرج بين المتظاهرين وهم يرددون عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.. اندهش د/ فرحات من غياب الصبية فهذا هو وقت الذروة لأنشطتهم في البيع. اضطرب قلبه من الخوف أن يكونوا قد قاموا بأية حماقة خاصة أنهم لا يدرون شيئًا عن السياسة، بحث في الميدان يمينًا وشمالاً بين جموع المتظاهرين دون فائدة فلم يجد لهم أثرًا يذكر.

ووسط الزحام وجد طفلاً من الصبية مختبئًا تحت أحد المقاعد فجرى إليه وسأله عن باقي أقرانه فكان الرد مؤلمًا والذي وقع عليه وقع الصاعقة فقد تم القبض على الأولاد جميعًا وهم الآن في قسم الشرطة دون أن يفعلوا أي شيء سوى بيع البضاعة للمتظاهرين أيًا كانوا معارضين أو مؤيدين، كاد د/ فرحات أن يبكي من الألم بأن يقبض عليهم يوم فرحته وقدرته على انتشالهم من هذه الظروف القاسية وتحويلهم من مرتزقة إلى محترفين.

ذهب مسرعًا إلى قسم الشرطة ليسأل عن التهمة فما كانت تهمتهم إلا البيع بدون رخصة في الميدان وكانت المفاجأة الأخرى تهمة سياسية بالاشتراك في مظاهرات معارضة لنظام الحكم. حاول د/ فرحات أن يتدخل ولكن الوقت كان قد تأخر وتم ترحيل الأولاد إلى المجهول.

نظر د/ فرحات إلى ملف المشروع الذي بيده وإلى باب القسم الذي يؤدي إلى الميدان المزعوم وخرج منه يجر أذيال خيبة الأمل بقدميه ويحمل الحسرة في عينيه يبكي أحلامًا كانت تطير في سماء واقع عقله وقلبه فاكتشف أنها ليس لها مكان تهبط فيه على أرض الحياة.

●●●

الطريق إلى الوزارة

«يقولون: الناس معادن، وأقول: أصبح المعدن عملة نادرة لا يصك...»

كالعادة دخل سامح بك بهو الديوان في شركة القطاع العام الكبيرة بمظهره المعتاد، أنفه لأعلى ووجه لا يرى إلا من أمامه وقدميه تضرب الأرض وكأنها له وحده، وإحدى يديه تمسك بنظارة الشمس التي لا تفارقه ليلاً أو نهارًا واليد الأخرى لا تترك جيب بنطلونه طالما أنه يقف أو يمشي أمام موظفيه.

مر سامح بك من بين طابور الموظفين الماثل على الجانبين منتفخ الصدر مختالاً كأنه الطاووس الوحيد على اليابسة ومن حوله مجرد دبابير نحل من صنع يديه، انحنت الرءوس احترامًا له ورددت بعض الألسنة همهمة التحيات الواجبة حتى انتهت مراسم الاحتفال اليومي وإلى أن دخل سامح بك مكتبه الوثير ووراءه ثلاثة من مساعديه أحدهما يحمل حقيبته والثاني يحمل أمانيه والثالث يحمل أوامره، وأمامه سكرتيرته الحسناء التي كانت تعمل لدى شخصية مهمة قبل أن تلتحق بمكتبه والتي لا تفارق مجلسه

وتحيطـه بعنايـة لا يشـعر بهـا إلا عندمـا تغيـب عـن العمـل يومًـا مـا لظـروف طارئـة، ومـا إن وقـف سـامح بـك أمـام المكتـب حتـى أزاح لـه أحـد مسـاعديه المقعـد إلـى الـوراء ليجلس بتـؤدة وهـدوء وهـو يلقـي أوامـره الباتـرة إلـى مسـاعديه الآخريـن لتنفـذ في التـو حتـى وإن كانـت بعيـدة عـن الأهـداف الرئيسـية للعمـل، انصـرف الثلاثـة مسـاعدين بعـد أن أنهـوا مهمـة اليـوم وكل يـوم وبقيـت السـكرتيرة الخاصـة لكـي تعـد لـه قائمـة اليـوم مـن الأنشـطة والأوامـر والنواهـي مناسـبة للعمـل كانـت أو غيـر مناسـبة. ضحكـت السـكرتيرة ضحكـة عاليـة ملآنـة بالنشـوة وضحـك سـامح بـك ضحكـة تغـازل النشـوة وبقـي في المكتـب لبـدء برنامجـه اليومـي المعتـاد.

بعـد عـدة دقـات علـى بـاب المكتـب لـزوم الاسـتئذان، دخـل مديـر شـئون العاملـين والبسـمة تمـلأ وجهـه بـل جسـده كلـه.

أهـلاً، ماذا عندك اليوم من أمور الموظفين؟

كلـه خيـر يـا معالـي المديـر طالمـا أن سـيادتك بخيـر فالـكل لا يرجـو إلا رضـاءك ولا يتمنـى إلا أن يـرى ضحـكات بسـماتك، حسـنًا حسـن، اجلس واحـكِ لـي بالتفصيـل عـن أحـداث يـوم الأمـس فأذنـاي متشـوقة إلـى سـماع كل صغيـرة وكبيـرة عـن أحـوال الموظفـين لـدي، بعـد أن سـمع مـا طـاب ولـذ مـن أخبـار خاصـة وعامـة عـن موظفيـه

أخذ يدخن غليونه استعداداً للمقابلة التلفزيونية عن أهم إنجازات الشركة ودوره كرئيس للقطاع.

بعد انتهاء التصوير طرق الباب الأستاذ منصور وفي يديه تقرير العمل عن أسباب الخسائر الهائلة التي تتكبدها الشركة هذا العام والذي عكف على كتابته منذ شهر تقريباً ليسلمه قبل أن يحال إلى سن المعاش الذي لم يبق عليه سوى شهور قليلة، وما إن رآه سامح بك إلا وصاح في وجهه، لم أطلب مقابلتك اليوم، ماذا تريد؟ أتريد أن تعكر صفوي في اليوم الذي أسجل فيه نجاحاتي على الهواء.

نعم، أنت لم تطلب مقابلتي سامح بك ولكني أطلبها لأن الشركة تمر بمصاعب جمة وتتكبد خسائر فادحة من الممكن تداركها قبل فوات الأوان وقد جمعت كل المشاكل والحلول هنا في هذا التقرير الذي بين يدي كما تتطلب مني الأمانة الوظيفية. تبًا لك ولتقريرك ولأتباعك من موظفيك الذين لا أريد أن أرى أحداً منهم هنا، اترك هذا التقرير وسوف أطلبك عندما أحتاجك، انصرف أستاذ منصور بهدوء غير عابئ بصوت سامح بك العالي ولا بفخامة المكتب الذي يجلس عليه ولا بالذي يجلس على المكتب، علي الفور دخلت السكرتيرة الحسناء المكتب ووراؤها

الثلاثة المساعدين ليهدئوا معالي رئيس القطاع بعد هذه المشادة مع الأستاذ الحانق منصور.

انتشرت إشاعة الإقالة المنتظرة لسامح بك وفتح تحقيق إداري معه بسبب خسائر الشركة سريعًا كالنار في الهشيم دون أن يدري عنها هو أي خبر، دخل سامح بك بهو الشركة وهو منتفخ الصدر كالعادة ولكنه فوجئ بغياب صف الموظفين على الجانبين لتحيته إلا من القليل ومنهم الأستاذ منصور الذي دائمًا ما يقف هو وآخرون ليس لأداء التحية ولكن ليظهروا ما تحت أيديهم من ملفات مهمة تخص الشركة لعلها تنال رضاه لعرضها عليه.

وما إن دلف إلى مكتبه حتى صاح في مساعديه وسكرتيرته الحسناء أين الموظفون؟ أين عملائي المخلصون؟ أين التحيات والانحناءات والتبجيلات؟ أين حاشيتي؟ أين ذهب الجميع؟ وتحت تأثير غضب سامح بك وصياحه اضطر مساعدوه بإخباره بوجود إشاعة وصلت للجميع بأن معاليكم في محنة وظيفية قد تؤدي إلى تحقيق إداري.

وما إن سمع سامح بك ذلك حتى هاج وماج وثار مناديًا على أستاذ منصور الذي مثل أمامه بكل هدوء نافيًا التهمة التي ألقيت عليه في التو من معالي رئيس القطاع بأنه هو الذي وراء هذه

الإشاعة المغرضة ليتخلص منه، لم يصدق سامح بك نفي التهمة وظل يصيح متوعدًا فانصرف أستاذ منصور بلا استئذان حتي لا يحدث ما لا يحمد عقباه بسبب الألفاظ النابية التي ملأت المكان ضجيجًا.

طلب سامح بك اجتماعًا طارئًا من الموظفين المخلصين لطاعته للتشاور في كيفية رده هذه الإشاعة التي قد تؤثر بالفعل عليه وعليهم وخاصة ما يتقاضونه من مكافآت نظير الطاعة لمراسم الوظيفة، تبارى الجميع أثناء الاجتماع في الاقتراحات من هنا وهناك حتى وصل عدد الاقتراحات خمسة أضعاف عدد الحاضرين للاجتماع ولكن لم يقتنع سامح بك بأي منها وبدا مهزومًا ضعيفًا متوترًا كلما جالت بخاطره فكرة تحويله إلى التحقيق الإداري.

نهض سامح بك صائحًا وغليونه بين شفتيه يعضه قبل أن يدخنه، أنضبت عقولكم من التفكير في مخرج لنا؟ أهذه هي كل مؤهلاتكم لدي؟ مجرد سفسطة كلامية وأشعار وأغاني مللتها، ألا يوجد بينكم رجل رشيد أعتمد على فكره وتدبيره لينقذني وينقذكم؟ تبًا لكم جميعًا، يا حسرتاه على ما أنفقته عليكم! سوف أترككم نصف ساعة أخرى للتفكر والتدبر حتى آخذ رأي

سـكرتيرتي بهـدوء لعلهـا تفلـح، وأريـد أن أرى حـلاً صائبًـا بــمجرد عودتــي وإلا فـلا توجـد أيـة مكافـآت بـل عقوبـات.

تحـول الاجتمـاع إلـى مشـاورات ونقاشـات جديـة وكأن الجميـع في حالـة حـرب دائمـة وفي حاجـة لرسـم خطـة المعركـة واسـتراتيجية الهجـوم ثـم حـاد النقـاش عـن الهـدف وبـدون وعـي وتحـول إلـى كيفيـة إيجـاد سـبيل للدفـاع عـن مسـتقبلهم إذا لـزم الأمـر في حالـة مـا إذا تحولـت الإشـاعة إلـى حقيقـة بالفعـل.

ومـا إن عـاد سـامح بـك مـن الغرفـة الداخليـة الخاصـة وبجانبـه سـكرتيرته حتـى نهـض الجميـع ليتلـو كل واحـد منهـم مـا تفتـق فكـره عـن حـل عبقـري حتـى ولـو كان علـى حسـاب المصلحـة العليـا للشـركة، فوجـئ الجميـع بسـامح بـك يلقـي عليهـم بلعناتـه وبنوبـة غضـب أشـد مـن الأولـى مسـتخفًا بكل مـا قالـوه واقترحـوه، سـاخرًا منهـم وصائحًـا أنتـم لا تصلحـون إلا أن تكونـوا طائعين منفذيـن لأحلامـي وأوامـري.

ارتعـش الجميـع طالبـين العفـو والغفـران مـن سـامح بـك ببركـة اسـمه الـذي هـو علـى مسـمى ولكنـه لـم يلتفـت ولـم يسـمع فقـد جـن جنونـه في كيفيـة الوصـول إلـى حـل قبـل أن تحـل المصيبـة مـن جـراء مجـرد إشـاعة.

فوجـئ سـامح بـك والجميـع بدخـول أسـتاذ منصـور محـاولاً للسـؤال عـن تقريـره، ومـا إن رآه سـامح بـك حتـى ثـار في وجهـه طالبًا منه الانصـراف فورًا فهو سبب كل المصائب التي حلت فوق رأسه والتي لا يجد لها حلاً، عبثًا حاول أستاذ منصور أن يشـرح لسـامح بـك مـدى أهميـة التقريـر ولكنـه فشـل فهـمَّ بالانصـراف، فجـأة تدخلت السـكرتيرة وبـدون أن تسـتأذن مـن سـامح بـك وطلبـت مـن أسـتاذ منصـور البقـاء وفض الاجتمـاع، لـم يعلـق سـامح بك على الأمـر الصـادر مـن سـكرتيرته والتـي لـم تلـق بـالاً بنظراتـه ثـم سـألت أسـتاذ منصـور بطريقـة تنـم عـن خبـرة عاليـة اكتسـبتها مـن عملهـا مـع أكثـر مـن رجـل مهـم منهـم مـن يتمنـى لسـامح بـك دخـول السـجن للتنافـس في الحصـول علـى كرسـي في البـرلمان أو الـوزارة.

أرجـو أن تعـذر سـامح بـك يـا أسـتاذ منصـور، فهـو فقـط في أزمـة نفسـية جـراء الإشـاعة ويجـب أن ننقـذه منهـا قبـل أن تتحـول إلـى حقيقـة حتـى لا نشـمت فيـه أعـداؤه، ولكـن يـا هـانم أنـا حـذرت كثيـرًا ممـا يحـدث ومـن يـدري فمـن الممكـن أن يكـون وراء الإشـاعة خصـم أو الحكومـة نفسـها.

مـا إن سـمع سـامح بـك كلمـة الحكومـة حتـى انتفـض مـن علـى كرسـيه الوثيـر، مـاذا تقصـد بكلامـك ؟ إنـه يشـبه الألغـاز، مفهـوم أن

الخصـوم ومـا أكثرهـم هـم أول المسـتفيدين مـن الإشـاعة فمـاذا عـن الحكومـة؟ إنهـا ليسـت ألغـازًا، الحكومـة قـد ترمـي بالإشـاعة قبـل تحقيقها إما للتنبيه وإصلاح ما فسد أو للتحضير لما هو آت وذلك بـتهيئة المنـاخ العـام للحـدث.

كلامك معقـول يـا أسـتاذ منصـور، اختيـارك في محلـه سـكرتيرتي العزيـزة فطالمـا عبـرت عـن إعجابـي بـذكاء أسـتاذ منصـور وفكـره حتـى مـع اختـلافي معـه. أزدنـي يـا عزيـزي وقـل لـي كيـف نخـرج مـن هـذه الأزمـة ولـك منـي كل أنـواع الحلـوى الورقيـة منهـا والغيـر الورقيـة فاسـمك فيـه علامـات النصـر إن شـاء الله.

أنـا لسـت بحاجـة إلـى أي حلـوى ولا أي إطـراء، أنـا فقـط أقضـي واجبـي حتـى وإن لـم يعـد لـي في العمـل هنـا إلا شـهورًا قليلـة واحتفـظ بالحلـوى لنفسـك واسـمعني فلعلـك تعطيهـا لمـن يسـتحقها بعـد الآن ليدنـو منـك حلـو الحيـاة.

نالـت الفكـرة التـي اقترحهـا أسـتاذ منصـور إعجـاب سـامح بك هو وسـكرتيرته وتم تنفيذهـا في التـو بسـرية تامـة، هـرع الموظفـون جميعًـا إلـى طابـور الصبـاح كمـا كان كالمعتـاد وأشـد وعلـى رأسـهم يقـف أسـتاذ منصـور وتحـت إبطيـة التقريـر المهـم.

مـر معالـي الوزيـر سـامح بك المرشـح للـوزارة حسـب الخبـر الـذي تناقلتـه الإشـاعة بـين عشـية وضحاهـا وهـو ينظـر يمينًـا وشـمالاً وهـم يتهامسـون مـاذا حـدث لسـامح بـك في يـوم وليلـة؟ أيكـون كرسـي الـوزارة المرتقـب هـو وراء تغييـر الكبريـاء إلـى التواضـع؟!

ومـا إن دخـل سـامح بـك مكتبـه حتـى أسـرع في طلـب أسـتاذ منصـور دون أن يلقـي بـالاً بـمدير شـئون العاملـين المنتظـر بالخـارج المنهمـك في مراجعـة قصيـدة يتغـزل فيهـا في أحـلام وأوامـر معالـي الوزيـر، دخـل أسـتاذ منصـور المكتب حامـلاً علـى كفيـه التقريـر المهـم ليضعـه أمـام سـامح بـك الـذي أمهـره بتوقيعـه علـى الفـور ورفعـه إلـى معالـي رئيـس الحكومـة للأهميـة القصـوى بعـد أن عكـف علـى دراسـته طـوال ليلـة أمـس.

ابتسـم أسـتاذ منصـور مداعبًـا سـامح بـك، شـكرًا لـك سـيدي لمسـاعدتي في تحقيـق مـا كنـت أصبـو إليـه لخدمـة عملـي، الآن أنـا فقـط سـامح وأنـت منصـور إن شـاء الله.

لـم تمـض سـوى أشـهر قليلـة حتـى قـرأ أسـتاذ منصـور وهـو يسـتمتع بقـراءة الجرائـد في يـوم جديـد مـن أيـام حيـاة المعـاش الهادئـة خبـر اسـم معالـي الوزيـر سـامح بـك مـن بـين أسـماء التشـكيل الـوزاري الجديـد.

ولـم يفاجـأ أسـتاذ منصـور حـين أتتـه مكالمـة مـن مكتـب الوزيـر وبصـوت الوزيـر الشـاب يهنئـه علـى الـوزارة فهـو الوزيـر الحـق الـذي تخطتـه الـوزارة.

ضحـك أسـتاذ منصـور ناصحًـا، مبـروك سـيادة الوزير علـى وزارة بـلا بطانـة أو نفس أمـارة، ضحـك الوزيـر قائـلاً أسـتاذ منصـور أرجـو أن تقبـل أن تكـون مستشـارًا لـي في الـوزارة فأنـا في حاجـة إلـى مزيـد مـن التقاريـر لأعـوض مـا فاتنـي مـن خسـارة، لـك مـا طلبـت يـا سـيادة الوزيـر وعقبـال رئاسـة الـوزراء.

●●●

إنتيرفيو صاحب السعادة

«أدوار الناس لا تُبدل؛ لأنها موصولة بإرادة السماء»

بعد أن ارتدى زيَّه البسيط الذي لا ينم أبدًا عن مركزه المهم، أخذ فوزي كرسيًا قديمًا ليجلس أمام شاطئ البحر بالمدينة الساحلية التي وجد فيها مهربًا من تلاطمات الأفكار التي تموج برأسه بعد أن زهد كل ما حوله. نظر حوله يمينًا وشمالاً فلم يجد هناك أحد سوى رجل يجلس مثله على كرسي هناك ولكن بزي يعكس مدى ثراء الرجل، تعجب فوزي من الرجل فالجلوس على الشاطئ يحتاج إلى ملابس «كاجوال» وليست رسمية وغالية الثمن بهذا الشكل المفرط فيه، أزاح عينيه بعيدًا عن الرجل وتركه في شأنه ليستمتع هو بهذه اللحظات الفريدة التي لا تتوفر كثيرًا لمن مثله، أمسك بترمس الشاي الذي جلبه معه وبعض ساندوتشات الجبنة وبدأ يتناول عشاءه بمزاج عال فقد زهد في كل الأشياء إلا راحة البال التي يحاول أن يعيشها الآن، ومع كل لقيمة ورشفة من الشاي ترك لعقله العنان يعبث كما يشاء بأمواج أفكاره.

وأول ما جال بعقله صراعات كان يعيشها بطولها وعرضها حتى الماضي القريب، صراعات وظيفية جعلته لا يشعر بالسنين وهي تتفلت من عمره دون أن يشعر. صراعات أخذته من نفسه وصحته وهواياته وأهله ولكنه أصر على خوضها حتى النهاية لينال المنصب الذي يحلم به ليل نهار ويتقرب إلى الله ليلاً والناس نيام ليناله، وبعد أن تكالبت عليه لكمات الصراعات وأصابته بكدمات فكرية، قرر أن يبدأ صفحة جديدة في حياته بعيداً عن المناوشات الخفية وقريبًا من قرارات تنجز وترتقي بمؤسسته الكبرى التي تمنى دومًا أن يبحر بها بين أمواج التميز بغض النظر عن حصوله على المنصب الجديد أم لا.

ورويدًا رويدًا وجد نفسه محشورًا بين أكوام المنازعات والمشاكل والشكاوى التي لا تغني ولا تثمن من جوع، أحاطته مشاعر التلذذ بالنفاق والرياء والمداهنة والمجاملات والمحسوبية وأبعدته عما كان يحلم به من تميز، كره المنصب وكره التميز وكره التملق وتملكه شعور بالزهد في كل ما يملك بعد أن ملك كل ما كان يريد، وهنا فقط تولدت اللحظة التي قرر فيها أن يزهد في كل ما ومن حوله وأن يهرب عن كل هذه الأجواء بزهده إلى مدينته الساحلية على هذا الشاطئ في هذا السكون والوحدة التي لا يشاركه فيها سوى هذا الرجل الذي يبدو غريبًا في هيئته التي يبدو فيها طاووسًا على شاطئ من الرمل.

وبعـد أن أنهـى عشـاءه الفكـري بسـاندوتش الجبنـة ورشـفات الشـاي أزاح الكرسـي بعيـدًا ونهض وقـرر أن يمشـي ﰲ مياه الشـاطئ حتـى يصـل المـاء إلـى كتفيـه لعـل ملوحـة البحـر تذيـب مـا علـق ﰲ قلبـه مـن كـره للأشـياء وتُركـز فيـه زهـده للحيـاة حتـى يعـود إلـى ممارسـة أعمـال منصبـه بـروح جديـدة وفكـر جديـد بعيـدًا عـن كل مظاهـر النفـاق والمحسـوبية المقننـة. ارتـاح كثيـرًا إلـى الفكـرة وشـعر بنفسـه طفـلاً يتفحـص ذاتـه لأول مـرة بعيـدًا عـن النـاس ليكتشـف ﰲ نفسـه أمـواج العـدل والرحمـة وحـب النـاس والفكـر المبـدع الحـر.

ومـع كل خطـوة تقربـه مـن الميـاه اكتشـف فـوزي ﰲ نفسـه إنسـانًا آخـر، إنسـانًا اتسـاع صـدره باتسـاع البحـر، وصفـاء مشـاعره بصفـاء الميـاه، وغنـاء أفكاره بعـدد أمـواج البحـر، ونيتـه المتدفقـة كنيـة البحـر ﰲ جريانـه وحمـل همـوم النـاس، تعجـب أيـن كان كل ذلـك وكيـف لصراعـات الحيـاة أن تخفـي ﰲ النفـس أنقـى وأجمـل وأرقـى مـا تملـك، وكلمـا زادت خطواتـه تجـاه البحـر زاد نقـاؤه وزاد زهـده وزادت راحـة بالـه الـذي أصبـح بعمـق وصفـو الميـاه، ومـا إن لمسـت قدمـاه ميـاه الشـاطئ حتـى شـعر بأنـه ناسـك مقبـل علـى صلـوات مـع ربـه لـم يصلهـا مـن قبـل صلـوات صاحـب المنصـب الزاهـد ﰲ صراعـات الحياة.

نظر فوزي يمينًا وشمالاً قبل أن يخوض في مياه البحر فوجد نفس الرجل القابع على الشاطئ هناك ينزل البحر هو الآخر بملابسه الرسمية والغالية وهيئته المبالغ فيها، تعجب من هذا الرجل وتصرفه وشعر بأنه يتعقبه وجاء ليفسد عليه مظاهر الزهد والصلوات المقبل عليها لتزيده نقاءً وتقربًا من الله. نظر إلى الرجل مليًّا فوجده غير عابئ بنظراته بل مازال مستمرًا في المشي في المياه بملابسه المتأنق فيها، أثارت هيئة الرجل وتصرفاته شكوكه فقرر أن يذهب إليه ويحدثه عن أمره فهو يبدو خارجًا عن قواه العقلية.

فوجئ فوزي بالرجل هو الآخر ينظر إليه متعجبًا عندما وجد فوزي يبدأ المشي في المياه، وقبل أن يهم فوزي بالذهاب إلى الرجل فوجئ به هو الآخر قادمًا نحوه. مشى كل منهما تجاه الآخر وفي صدرهما سؤالاً كبيرًا، يا ترى ما الذي يدفع رجلاً آخر غيري في هذا الوقت المتأخر من هذا الليل البارد من المشي في الماء؟!
وتقابل الرجلان وعيون كل منهما معلقة على عيون الآخر.

وبعد برهة من النظرات المتبادلة فوجئ الرجل بملامح يراها كثيرًا في الجرائد والمجلات والتلفاز، ملامح رجل يعرف أنه مهم واقف أمامه الآن بملابس رثة وقدميه عارية في المياه، بتعجب بادر الرجل فوزي، هل أنت فوزي باشا الذي نقرأ أخباره أم شبيه له؟!

فوزي: نعم، هو أنا.

الرجل: وما الذي دفعك أن تأتي هنا إلى الشاطئ وحيدًا وإلى المشي في الماء الآن هكذا.

فوزي: أنا رجل وكما تعرف ذو منصب وجاه، أثقلت صدري هموم المنصب وصراعاته وفتنته وماله وبعدتني عن نفسي وراحة بالي وإبداعاتي فجئت هنا زاهدًا في كل شيء حولي لأنهل من اتساع البحر وألتمس فيه الهدوء والعودة إلى نفسي وإلى منصبي بفكر وقرارات جديدة بعيدًا عن كل الملوثات، أو لأتركه إلى الأبد وأرتاح ويرتاح مني المنصب.

الرجل: حسنًا ما فعلت فوزي بك، فعندما رأيتك عن بعد حسبتك فقيرًا لا تملك شيئًا فجئت تناشد البحر وتمشي في مياهه لعل الرزق الساكن فيه يباركك ويطولك.

فوزي: وأنت ما دفعك للمشي في الماء الآن وبهذه الملابس الأنيقة.

الرجل: أنا رجل هدته هموم الفقر والحاجة فزهدت الفقر، وزهدت شظف الحياة، وزهدت الحرمان والأمنيات الميتة والأحلام الهاربة من أسباب الواسطة والمحسوبية والنفاق والرياء، فقررت

أن أشتري بكل ما أملك هذه الملابس التي تمنيت دومًا أن أرتديها وأنا ذو مال ومنصب وجاه، وجئت هنا لأكون وحدي مع البحر أغتسل من حياة الزهد والفقر والحرمان لعل مياه البحر تباركني وأنا في هيئتي هذه ولعلي أعود رجلاً آخر مملوءًا بحياة العز والجاه.

ابتسم فوزي: جئنا نمشي على البحر والبحر يتسع لكل الهموم. جئت أنا زاهد في المنصب والمال والجاه وطالبًا لشظف الحياة، وجئت أنت زاهد في الفقر والحرمان وطالبًا للمال والجاه والسلطان.

ضحك الرجل: فلنتبادل الأدوار.

ضحك فوزي: الأدوار لا تُبدل لأنها موصولة بإرادة السماء.

الرجل: إذًا فلنبدل الملابس الآن ومعها ولنبقي الأمنيات للسماء.

قضى الرجل مع فوزي أمسية رائعة تسامرا فيها طوال الليل حتى دمعت العيون من الانبساط واتساع راحة البال وهدوئه ونقل الرجل على صفوها مهاراته وشهاداته وخبراته وأمنياته الوظيفية، عاد فوزي بك إلى منصبه بروح جديدة انعكست على بهو المكان

وعلى من حوله وأصبح قادرًا كل صباح أن يمشي على الأرض كما كان يمشي في الماء مغتسلاً من كل فتن وملوثات المنصب.

وفي نهاية الأسبوع كان آخر لقاء، مقابلة مع متقدم لوظيفة مدير مكتبه كان قد أعلن عنها منذ عودته، نهض لِيُحَيِّي المتقدم فور دخوله من الباب، وإذ به يجده أمامه بابتسامته العريضة وبنفس الهندام الذي رآه فيه على الشاطئ وهو يمشي في الماء.

فوزي: أهلاً يا رجل، ظننتك نسيتني ونسيت الشاطئ والأمنيات.

الرجل: وها أنا ذا تقدمت لإحدى أمنياتي وجئتك بزي الأمنيات.

ابتسم فوزي: إذًا لا داعي للإنتيرفيو فقد عقدته معك على شاطئ البحر واجتزته بنجاح. أهلاً بك في مؤسسة الحياة لتكون أول موظف وساطته مؤهلاته التي شهدت عليها مياه البحر ورمال الشاطئ.

شد الرجل على يد فوزي، هنيئًا لك بزهد فتن الحياة، وهنيئًا لك بمنصبك الجديد، فقد اجتزت الامتحانات بنجاح، أما أنا فلا أحتاج للوظيفة، فأنا رقيب على الوظائف وأصحابها.

تلعثم فوزي بك وفوجئ بمكانة الرجل الخفية، ولكن سرعان ما تهلل وجهه من المفاجأة وأسرَّ في نفسه، نعم الزهد مفتاح النجاح، والنجاح قد يُكتب على الشاطئ.

●●●

جائزة آخر العمر

«من منّا لا يحتاج إلى الآخر ولو فاتته الحياة...»

بعـد أن سـمع عـن الجائـزة الكبـرى التـي أعلنـت عنهـا الدولـة لأصحـاب الإنجـازات، قـرر أن يتقـدم لهذه الجائـزة لعلها تغيـر حياتـه الباقيـة معنويًـا واجتماعيًـا مـع أولاده وأحفـاده بالرغـم مـن وصولـه عمـر السـبعين، فقـد وجدهـا فرصـة سـانحة ليـرى أولاده، وكانـت الوسـيلة لدعوتهـم هـي أن يعـرض عليهـم فكـرة تقدمـه للجائـزة. وبعـد عنـاء طويل وافـق أبنـاؤه علـى دعوتـه الذيـن أتـوا علـى اسـتحياء بسـياراتهم الفارهـة بعـد أن وعدهـم بمفاجـأة كبيـرة.

أخـذ موقعـه علـى قائمـة طاولـة السـفرة والـكل حولـه مشـغول بالمفاجـأة فمنهـم مـن يهمهـم مـع نفسـه ومنهـم مـن يهمهـم مـع مـن بجانبـه حـول طبيعـة المفاجـأة الكبـرى التـي بالطبـع أتـوا مـن أجلهـا، بابتسـامته الواسـعة الملآنـة بالثقـة، طلـب مـن الجميـع بصوتـه الهـادئ، بنغمـة فيهـا خيـلاء لـم يشـاهدوه عليهـا مـن قبـل، ألا يغـادروا منضـدة الطعـام حتـى يعـرض عليهـم المفاجـأة.

وما أن أعلن عن الجزء الأول من مفاجأته وهو نيته للتقدم للجائزة الكبرى حتى أظهر معظم الأبناء تململهم ولم يلقوا لحديثه بالاً بل بدأ الكثير منهم يترك الطاولة كمرحلة أولى من الاستئذان من الاجتماع فكفى تعطيل مصالحهم اليوم الذي لم يسفر عن شيء مرضٍ سوى سماع هذا الهراء الذي لا يثمن ولا يغني من مال.

استمر الأب في عرض المفاجأة بحماس غير منقطع بالرغم من انشغال الكبار في مناداة الصغار ليستعدوا لمغادرة المكان، تحول الجمع إلى ساحة من الفوضى المنظمة فقد تركه معظم أبنائه يتحدث لنفسه وكأنه قد أصابه الجنون؛ ولأنه يعلم تمامًا تأثير الجزء الثاني للمفاجأة على نفوس أبنائه، استمر في حديثه والابتسامة الواسعة تحملها ملامح وجهه بثقة وخيلاء.

ومع أن الحصول على الجائزة يا أبنائي ويا أحفادي يمثل تكريمًا أدبيًا ومعنويًا لي كبير خاصة بعد الإنجازات الكبري التي قدمتها طيلة مشوار حياتي، إلا أن المبلغ المالي الكبير الذي سوف أحصل عليه هو الأهم فسوف أقدمه لكم تعويضًا عن عدم قدرتي على ترك أي إرث لكم سوى تعليمكم الذي بذلت فيه الغالي والنفيس.

ومـا إن سـمعوا كلمـة المبلـغ الكبيـر وبأنـه هديـة منـه لهـم حتـى تسـمروا في أماكنهـم ورجعـوا إلـى طاولـة الطعـام مـرة أخـرى وآذانهـم لا تبـرح شـفتيه، نسـوا الأولاد ونسـوا كل شـيء وتذكـروا فقـط المبلـغ المالـي الكبيـر، ويـا تـرى كـم هـو المبلـغ الكبيـر يـا والدنـا الحبيـب؟!

ابتسـم الأب بابتسـامة تسـكنها شـفقة علـى نفسـه وعلـى أولاده وأحفـاده ثـم أردف، لا تقلقـوا فالمبلـغ كبيـر جـدًا يكفـي لـكل منكـم أن يحقـق طموحاتـه الماليـة.

اتسـعت أفـواه الجميـع وسـال لعابهـم المـادي علـى المنضـدة وفي سـيل التـودد إليـه والإطـراء في مـدح أبوتـه وحنانـه وكيـف أنـه الأب الـذي لـم ولا ولـن يجـود الزمـان بمثلـه، ومـا هـو المطلـوب منـا يـا والدنـا الحبيـب حتـى نسـاعدك في الحصـول علـى هـذه الجائـزة الكبيـرة لتقـر عينـك وتحقـق آمالـك الأدبيـة.

وبصعوبـة نهـض الأب مـن علـى كرسـيه وهـو يتكـئ علـى عصـاه التـي تلازمـه ولا تفارقـه أبـدًا لتحفـظ لـه توازنـه حتـى لا يقـع في وحدتـه التـي تمـلأ عليـه أركان البيـت، لا عليكـم فـأنـا قـد رتبـت معظـم الأوراق ولـم يبـقَ إلا تقديمهـا بعـد ثلاثـة أشـهر مـن الآن بعـد أن أكـون قـد أنهيتهـا تمامًـا، فقـط أريـد منكـم الدعـاء والاهتمـام بـي علـى الأقـل حتـى ميعـاد تقديمهـا.

بالطبع يا أعز الناس، سنعيش تحت قدميك وسوف نتقاسم نحن الخمسة مع أولادنا الاهتمام بك والإقامة معك هنا ولن نتركك بمفردك مهما كانت مشاغلنا في الحياة، وكلنا أسف على تقصيرنا وعدم اهتمامنا بك من قبل، وعذرنا هو عنفوان الحياة الذي أخذنا منك تمامًا ونرجو أن تقبل تأسفنا فسوف نعوضك تقصيرنا.

دخل الأب غرفة مكتبه التي يعشقها في بيته الكبير الذي تسكن الوحدة أركانه، وأخذ يقلب في أوراقه القديمة المملوءة بذكرياته العلمية والأدبية والاجتماعية وقطرات الدموع تتساقط من عينيه، وفرحة كبيرة ملأت نفسه ولكن بها غصة تعض قلبه الضعيف بعد أن استطاع أن يجد سببًا واهيًا يقنع به فلذة أكباده الخمسة وأحفاده بأن يأتوا إليه حتى لا يفارق الحياة وحيدًا بعد ثلاثة أشهر من الآن بسبب المرض اللعين كما أخبره الطبيب.

وبعد شهرين مات الأب على كرسيه في مكتبه ويديه متعلقة بصور ذكريات الزمن الجميل مع أطفاله، وخارج المكتب بعض الأولاد والأحفاد في الخارج مازالت قلوبهم وعقولهم متعلقة بالفوز بالجائزة الوهمية.

●●●

بكاء الحجر

«وطني، عندما أقرر الرحيل عنك، فسوف تكون هجرتي إليك، لتحميني من نفسي للأبد عينيك».

انخرط في بكاء شديد اهتزت بسببه الكاب الذي يرتديه ليحميه من هذا القيظ الذي جعل الأفكار في رأسه تغلي وتتبخر حتى عجز عن التفكير والوصول لخيار أو قرار عقب سماعه هذا الخبر، ومازالت عينيه تذرف دموعًا ساخنة بفعل سخونة الموقف وسخونة قيظ الأرض تحت قدميه والسماء العارية فوق رأسه، نظر عيسى حواليه فلم يجد أحدًا هنا من زملائه فقد ذهبوا دون أن يدري فقد حل منتصف النهار ووقت الراحة وساعة الغذاء، هل أنسى ما حدث وأذهب لألحق بالجميع حتى لا يقلقون عليّ وحتى لا أقع تحت طائلة تساؤلاتهم الملحة أم أبقى هنا لمزيد من التفكير في هول ما حدث ولا ألقي بالاً بمن حولي؟!

قرر عيسى أن يبقى وسط الصحراء القاحلة وحيدًا بعيدًا عن الجميع ليسمح لعينيه أن تذرف دموعًا غالية لا يمكن لأحد غيره أن يراها ويرى عينيه الباكيتين، ومع كل دمعة تساءل عيسى

لماذا وكيف حدث ما حدث؟ أهو بفعل فاعل دبر له منذ زمن أم هي أحداث الحياة التي تأتي غفلة دون أن نحسب لها أي حساب فتقلب حياتنا رأسًا على عقب وتنحت مشاعرنا ولا تتركها إلا وهي كنتف ريش غير قادرة على تحمل ولو قيد أنملة من المفاجآت الغير سعيدة بالحياة؟!

لم يدرِ عيسى بنفسه إلا وهو بين زملائه بعد أنهوا مراسم الراحة والغذاء وصيحاتهم تملأ السماء قاضين بضحكاتهم ونكاتهم على بعضهم البعض وكأنهم ينتقمون في همزاتهم عن عمد من شظف الحياة وحرارة الشمس وقيظ النهار والمعدات الثقيلة التي يحملونها على صدورهم وعلى ظهورهم طوال اليوم، ولحسن حظ عيسى لم يلحظ أحد من رفاقه الجنود آثار مجري دموعه على خديه فقد نفد الدمع من غدده الدمعية بعد أن بكى كل ما لديه من دمع وبعد أن جففت حرارة الشمس مجرى الدموع.

لم يلحظ أحد من زملائه الحزن القابع تحت أديمه وفي مقلتيه والذائب في عرق كفيه والمخبأ تحت قدميه، فعيسى لديه قدرة فائقة أن يتحكم في حزنه ويخفيه في مكان ما في جسده وتحت ملامح وجهه وتضاريس وجنتيه، فهو الجندي الملتزم الذي يُضرب به المثل بين زملائه في قوة التحمل والصبر والشجاعة

والإقدام المغلف بابتسامة طبعتها الحياة على شفتيه ورسمتها ريشة جينات والديه في عينيه.

لم يلحظ أحد من زملائه حجم الكارثة التي أحلت به وكادت أن تميد بعقله وقلبه وجوارحه لولا أنه تدرب على الحزن مرات ومرات بعد أن رحل والديه عن الحياة فور تخرجه من كلية الهندسة وقبل أن يلتحق بالجيش وبهذه الكتيبة من القوات الخاصة هنا على حدود الوطن وبعيدًا عما بقي من الأهل هناك، انخرط عيسى وسط زملائه لإنهاء وقت التدريب اليومي قبل أن يبدأ في تنفيذ الأعمال المكلف بها اليوم من حراسة لنقاط ساخنة على الحدود بين المتربصين داخل وخارج الحدود.

ومع أن الجميع لم يلحظ حزن عيسى الدفين بسبب رباطة جأشه وبسبب انشغالهم بأدوارهم العسكرية التي يجري فيها قضاء الله بالحياة أو الموت، إلا أن قائدهم لاحظ حزنًا يطل من كل خلية في أديم عيسى وتتبع جذور هذا الحزن الذي امتد إلى حجرات قلبه وبنات عقله، وفي خلال دقائق وبمهنية عالية أنهى القائد التدريب وصرف جنوده ليستلموا مهامهم القتالية والدفاعية على نقاط التفتيش والحراسة والدورية ثم نادى عليه، ماذا بك يا جندي عيسى؟

تمام يا افندم، مفيش حاجة يا افندم.

لكنـي أرى أكوامًـا مـن الحـزن فـوق كتفيـك وأنهـارًا مـن الدمـوع المجمـدة في مقلتيـك، أنـا أعرفـك يـا عيسـى كمـا أعـرف رمـال هـذه الصحـراء حبـة حبـة، وكمـا أعـرف أجـزاء هـذه البندقيـة التـي علـى كتفـك جـزءًا جـزءًا، أعرفـك يـا عيسـى كأخ أكبـر لـك وكقائـد يقـرأ ويكتـب جنـوده ويملـي عليهـم، مـاذا بـك يـا عيسـى؟ مـاذا حـدث لـك فجـأة وجعلك لا تأتـي معنـا إلـى الراحـة والغـذاء مـع أننـا جميعًـا كان يتلاعب بنـا الجـوع.

أنـا تمـام يـا افنـدم، وجاهـز سـيادتك لأي تكليـف لأي مهام قتالية، أنـا فقـط أردت أن أخلـو بنفسـي وقـت الراحـة لأريـح القلـب والعقـل وسـط هـذا الخـلاء قبـل انخراطنـا كعادتنـا اليوميـة في الحراسـة والتفتيـش حتـى آخـر المسـاء.

وبصرامـة عسـكرية: جنـدي عيسـى، بالأمـر العسـكري أخبرنـي عـن سـبب جمـود عينيـك وجفـاف الابتسـامة علـى شـفتيك والحـزن الـذي يجـري في وجنتيـك، نفـذ الأمـر يـا جنـدي.

رفـع عيسـى سـاعده لأعلـى بسـرعة وبثبـات وبقـوة لتلامـس أناملـه جبهتـه ليـؤدي التحيـة العسـكرية لقائـده قبـل أن ينفـذ الأمـر ويقـص عليـه الخبـر الـذي نـزل عليـه كالصاعقـة مـن قضـاء السـماء

فشَلّ عضلات فكره وهو الجندي المميز في جنود فرقة الصاعقة بالذي لا يقهر.

نهض القائد عندما لاحظ مدى تأثر عيسى بما هو قادم من تنفيذ الأمر العسكري ونظر في عينيه وأمسك بكتفيه ليشد من أزره، وليشاركه انفعالاته، احكِ لي يا عيسى ماذا حدث وإلا صرفتك لنبدأ مهامنا العسكرية؟

علم يا افندم، لقد علمت في التو بأن أحد القتلى في الخلية الإرهابية التي أنهينا عليها بعد أن قَتَلت سبعة من جنودنا هو أخي الأصغر الذي هجر البيت ولم أره منذ سنوات.

وهول المفاجأة في عيني القائد ومازالت راحتيه على كتفي عيسى، شد حيلك يا جندي، شد حيلك وأنت في أجازة لمدة أسبوع.

علم يا افندم، ولكني لن أترك وحدتي قبل قضاء المهمة وبدون أعذار مهما يكن.

سحب القائد راحة كفه من على كتفي عيسى ورفع ساعده بمحاذاة جبينه بثبات ليرد التحية بقوة: جندي عيسى، أنت جندي بألف قائد وبألف جندي.

وقبـل أن تنتهـي التحيـة دوى صـوت انفجـار في نقطـة تفتيـش هنـاك ووسـط دخـان تتطايـر فيـه الأشـلاء. جـرى القائـد وعيسـى جنبًـا إلـى جنـب إلـى مـكان الانفجـار ليكملـوا المهـام بـلا تفكيـر وبـلا أعـذار.

●●●

حكاية معركة

«ما أروع الحياة عندما تواجه الموت وجهًا لوجه، فتبقى الحياة مبتسمة».

بـرداء مـن المشـاعر المزيفـة وبغفلـة منـي تسـلل مـن بـين جوانحـي وتسـلق أسـوار مشـاعري وسـكن هنـاك بداخلـي، وفجـأة وعلـى غـرة منـي أمسـك بسـكين كلماتـه وانهـال علـى الضلـوع يطعنهـا ويقطعهـا إربًـا باحثًـا عـن موضـع القلـب، ولمـا أحـس بملمسـه انهـال طعنًـا في سـمك جدرانـه يقطـع أركانـه بنصـل سـكينه الحـاد يهتـك الأذينـين والبطينـين باحثًـا عـن المشـاعر ليقتلهـا وعـن الأحاسـيس ليمزقهـا.

ولكنـه لـم يجد شـيئًا سـوى تيـارات مـن الدمـاء الجاريـة مـن الـدم وإليـه فاشـتاط غضبًـا وهـاج ومـاج بسـكينه العميـاء باحثًـا بـين بقايـا قطـع اللحـم مـن قلبـي التـي تناثـرت بـين الضلـوع الممزقـة في صـدري ولكنـه لـم يجـد شـيئًا فانهـال علـى أوردتـي وشـراييني يذبـح في جدرانهـا باحثًـا عـن المشـاعر في طياتهـا وبـين خلاياهـا الحمـراء والبيضـاء، ولكنـه لـم يجـد شـيئًا سـوى صـدى المشـاعر الـذي مـازال يسـمعه هنـا وهنـاك في أرجـاء صـدري ولا يعـرف مسـكنه.

زلزل صوت المشاعر سكينه فأصابه جنون البحث وهاج وماج يقطع أشلاء قلبي هنا وهناك ولكنه لم يجد شيئًا فألقى سكينه الحاد وسط الدماء وترك صدري يغوص في بركة من الدماء الساخنة وجسده يرتعش من هياج مشاعره الصدئة وأفكاره المجنونة، وازداد جنونه فالتقط بيمينه معول أفكاره الصدئة وبشماله فأس حقده القاطع باحثًا عن عقلي.

انهال بعزم ساعديه على عظام جمجمتي يمينًا وشمالاً حتى استسلمت عظامها إلى ضربات معوله الغاشمة وفأسه القاسية وانفتحت أمامه أبواب جممجمتي على مصراعيها ليجد دماغي مكورًا هناك بانحناءاته وتموجاته وما حوى فظنه في حالة دفاع عن نفسه ولم يدرِ بغباء أفكاره وحنق مشاعره أن التموجات والانحناءات تلك ما هي إلا طبائع مخية مسالمة فانهال عليها يضرب سطحها وفي عمقها ويهتك أنسجتها الرخوة والنشوة تملأ عقله المجنون ضاحكًا ومستهزءًا ببريق خلايا مخي العالق بنصل فأسه ومازال ممنيًا نفسه أن يجد مشاعر قلبي وأفكار عقلي مختبئة هنا أو هناك بين ثنايا الخلايا ليقطعها إربًا ويلطخها بدمي.

ولكنـه لـم يجـد لهـا أثـرًا ملموسًـا يقطعـه ويمزقـه سـوى صـدى صـوت مشـاعري وقهقهـة أفـكاري التـي تمـلأ جـوف عقلـي، ازداد جنونـه الأعمـى وانهـال علـى بقايـا الخلايـا يهرسـها بمعولـه ويقطـع الأوصـال بينهـا بفأسـه باحثًـا عـن عقلـي بـين بقايـا الخلايـا المتناثـرة هنـا وهنـاك بـين أشـلاء عظـام جمجمتـي وأنويـة خلايـا مخـي المهتكة، وعبثًـا لـم يجـد شـيئًا مـن عقلـي هنـاك ولكنـه مـازال يسـمع قهقهـة أفـكار عقلـي السـاخرة وصـدى مشـاعري الدافئـة في أرجـاء جمجمتـي الممزقـة.

جـن جنونـه وصـاح بأعلـى صوتـه علـى صـدى ضربـات فأسـه ومعولـه أيـن أنـتِ أيتهـا المشـاعر لأمـزق أربطتـك؟ وأيـن أنـتِ أيتهـا الأفـكار لأنـال مـن عقلـك؟ أيـن تختبئـين؟ وفي ظـل جنونـه الجامـح وضرباتـه العميـاء الداميـة فقـد عقلـه ومشـاعره وانهـال بمعولـه وفأسـه يضـرب عقلـه ويقطـع قلبـه وسـط تأوهاتـه ولـم يـدر بنفسـه وهـوى جثـة هامـدة تتدلـى الفـأس مـن إحـدى يديـه ويتدلـى مـن يـده الأخـرى معولـه ملطخًـا بدمائـه الغريبـة التـي تنـزف مـن قلبـه وتـذوب فيهـا أفـكاره الصدئـة.

وسـقط مـن عليـاء عقلـي جثـة هامـدة لتهـوي بـأركان صـدري لترتطـم بسـكينه التـي تركهـا هنـاك لتـوه لتقطـع أحشـاءه ليسـقط

صريعًا وسط سكون أطبق على جوانحي إجلالاً للحظة وفاة مشاعر صدئة وأفكار حانقة في نهاية عراك من طرف واحد.

تجمعت الخلايا البيضاء التي كانت قد سالت هناك من أوردتي وشراييني جراء فعلته وجرت ناحيته تحيط بجسده تغسله وتكفنه وتشيعه ومعه مشاعره وأفكاره إلى مثواها الأخير بعد أن حفرت لها قبرًا بعيدًا هناك في الطحال حتى تتحلل وتتلاشى إلى الأبد.

ولم يمضِ وقت طويل حتى التأمت جراح القلب والعقل وعادت خلايا الدم إلى أوعيتها تحتضن مشاعرها الدافئة وخلايا المخ إلى جمجمتها تحوي أفكارها العاقلة واندمل جرح الضلوع وعلا صدى صوت المشاعر يغني على دفوف الأفكار أغنية انتصار القلوب الطيبة والعقول الحانية.

«وعلي ضوء أحداث ذلك الحلم تعلم صابر في بحر الحياة كيف يحافظ علي قلبه وعقله من غزو النفوس المريضة ولو كانت ترتدي ثوب الفضيلة»

●●●

حارة الكتب العتيقة

«ليتني أستطيع جمع كل الكلمات من حقول المعرفة، وأحملها على ظهري، وأضعها بين يديك هدية وعليها إمضاء ابتساماتي».

كان يومًا عجيبًا، يومًا ليس كأي يوم، عندما ذهب صالح كعادته إلى سوق الكتب العتيق الذي يعقد مرة في الأسبوع وسط مدينته المكتظة بملايين من النفوس التي تحمل رءوسًا عازفة عن القراءة إلا القليل وهو منهم، الكتب مصطفة على الجانبين مرتدية ثياب عتيقة وتنام على أرض السوق في استحياء ويزيد حياؤها عندما يلتقطه أحد العابرين جسد إحدى الكتب ويقلب بعض صفحاته ثم يمصمص شفتيه ويلقيه على الأرض مرة أخرى بلا مبالاة وكأنه اكتشف فجأة أن الكتاب لقيط. حينئذ يشعر الكتاب وصفحاته بضيق وحزن شديد يكاد يمزق جلده ويتمنى أن يحول سطوره إلى حروف من شظايا يطلقها على هؤلاء اللاقراء، ولكن سرعان ما يهدأ الكتاب عندما ترفعه أيدي أحد المارة بتلهف وتشوق لقراءته.

بعد خطوات ذهابًا وإيابًا بين صفوف الكتب المتراصة على جانبي الطريق وعلى الأرفف الخشبية العتيقة في الشارع العمومي والشوارع الجانبية شعر صالح وكأنه في بستان فكري أزهاره تلك الكتب الحاملة لطلع ومتاع الحياة، شعر صالح بنكهة غريبة ولكنها جميلة تملكت نفسه المشتاقة إلى شيء غير عادي يملأ عليه حياته الجافة من المشاعر اللينة والعاطفة الجياشة بعد أن هجرته الأماني الجميلة التي كانت تملأ عليه حياته فتُجَمل له كل شيء حتى الجماد، لا يدري ماذا يبحث عنه؟ ولكنه يتطلع إلى شيء ما لا يعرفه ولا يدركه لعل هذا الشيء قابع هناك وسط هذه الكتب في كتاب ما وفي صفحة ما وفي سطر ما، شيء يبدأ منه وعليه رحلة حياة جديدة مفعمة بالنشوة والأمل والحب من بعد هذا الركود في حياته الذي يترنح بين بيات شتوي إلى خمول صيفي، كم يتمنى صالح أن يجد في أسطر ما في هذا السوق العتيق ثورة بلاغية تفور منها كلمات تغلي بالحب والعشق والسهر والاشتياق والطموح وكل أنواع مقبلات الحياة، ولكن كيف له أن يجد هذا السحر الخفي في آلاف الصفوف من الكتب العتيقة هذه؟!

مصمص صالح شفتيه امتعاضًا على حاله الذي يريد إصلاحه هنا فكيف له أن يغير مسار حياته بكلمات والآخرون يلجأون لكل أساليب الحياة الأخرى للتغيير. فمن أصدقائه من لجأ لمسار

السياسة ومنهم من لجأ إلى مسار الفن أو الرياضة والكثير إلى عالم المال والإعلام، أما هو فمازال يفكر بنفس عقليته التي لم تتغير منذ وعى على الحياة واستمرت معه حتى فارقه والده الذي أورث له هذا المسار الفريد من تغيير البيات الشتوي للحياة، والغريب أن هذا المسار المتفرد لم يزعج صالح أبدًا بل طالما يتلذذ به أيما تلذذ خاصة عندما يكتب هو كلمات مرسلة من المشاعر الحانية بفلسفة راقية ومعاني تجذب لب العقل وترياق القلب.

استمر صالح في تقليب الكتب والروايات والقصص القصيرة وكأنه يقلب في ورود حديقته بفناء بيته يستنشق عبق ورحيق الكلمات المتراصة بالكتب في نشوة عارمة ملأت عقله وقلبه حتى أصبح عبير هذه الكتب العتيقة جزءًا من هندامه المتأنق الذي اعتاده عمدًا كلما ذهب إلى حارة الكتب وكأنه على موعد غرام، وبعد أن قلب وقبّل بشفاه أصابعه عشرات الكتب تسمرت عينه على كتاب عندما قرأ عنوانه وبينه اسمه صالح، حدق صالح في العنوان ولم يصدق عينيه فهو أول مرة يرى هذا الكتاب مع أن معظم الكتب هنا أصدقاؤه يعرفهم فردًا فردًا ويعرف أسماءهم ويشاركهم همومهم وأفراحهم، انفرجت أساريره وتعجب من كتاب بعنوان «يوميات صالح في حارات النفس الشقية» الذي شعر وأنه يحمل في طياته رحلته الداخلية.

أحقًا هذا؟! أحقًا عنوان الكتاب؟! أحقًا أُرابط أنا على غلاف الكتاب؟! أيكون أنا الذي يعنيه المؤلف؟! كيف علم أن هناك في مكان ما هنا على هذه البقعة من العالم نفسًا اسمها صالح تهيم في حارات النفس الشقية؟! أيصل التواصل الروحاني بين العقول إلى هذا الحد؟! هكذا حدث صالح نفسه وهو يتمنى أن تكون محتويات الكتاب تقص حياته اليومية كما في العنوان، وبالفعل، فعندما تصفح بعض الصفحات وجد نفسه هناك يجري ويلعب ويقرأ ويذاكر وينام ويصحو في كل مكان في فصول الكتاب، أمسك صالح الكتاب وضمه إلى صدره كأنه يضم حبيبه ومشى دون أن يبالي حتى بدفع ثمن الكتاب، نظر إليه بائع الكتب وابتسم أين أنت ذاهب يا أستاذ صالح؟! نسيت أن تدفع ثمن الكتاب، لم يلتفت صالح إليه واستمر في مشيته الهوينة في حالة هيام مع كتابه دون أن يشعر بمن يناديه وهو يحدث نفسه هذا الكتاب لا يباع ولا يشتري، إنه أنا، روحي تسكن هذا الكتاب. ابتسم البائع ولم يعلق فالأستاذ صالح دائمًا ما يدفع أكثر من سعرالكتب.

أمسك صالح الرواية التي يعشق قراءتها بين كفيه كأنها قرآن أفكاره يتنفس عبق حروفها وينهم معاني كلماتها متبخترًا بعينيه بين الجمل متشوقًا لأحداث يتمنى حدوثها لبطل الرواية صالح الذي تعاطف معه خاصة أنه يحمل سنواته الثلاثين وكأن

مؤلف هذه الرواية كتبها عن صالح الواقعي وليس صالح الخيال منذ ثلاثين عامًا أي يوم ميلاد صالح، صدفة عجيبة لا يجد لها تفسيرًا إلا أنه يحلم أو هو تناسخ الأرواح.

وضع الكتاب بين راحتيه وتراخت عضلات أصابعه وهي تحتضن صفحات الكتاب وتقلب صفحة بعد الأخرى وعينيه تداعب الكلمات وتغازلها وشفتيه تتراقص مع عينيه عن كل حدث يجد فيه صالح بلحمه ودمه بين السطور، كلما قرأ مزيدًا من الصفحات والأحداث ازداد تعلقه بالكتاب وأحداثه فحياته هناك توصف الماضي الذي عاشه بحذافيره وكأن الكاتب كان يعيش مع صالح أو كان يتجسس يومًا بعد يوم على أحداث حياته قبل ميلاده. ويومًا بعد يوم تحول شغف صالح إلى قلق وخوف من أن يقرأ باقي أحداث الرواية عندما وصل إلى الفصل الثلاثين الذي يصف أحداث حياته التي يعيشها الآن في الحاضر، هل يكمل القراءة أم ينهيها؟! ولكنه لم يستطع التوقف واستمر في قراءة الفصل الثلاثين ليجد نفسه مُعَرًّى أمام نفسه وكأن ما يقرؤه ليست رواية بل كتاب أعماله حتى يومه هذا.

غاص صالح في أعماق الكلمات والجمل يبحث عن عقله في زمن فات ولكنه يراه ماثلاً أمامه بتجاعيده وانبساطاته وتموجاته

وكأنـه يـرى فيلمًـا سـينيمائيًا لحياتـه ألفـه الكاتـب وصـوره وأخرجـه يـوم ميـلاد صالـح كمـا تعكسـها أحـداث الروايـة حتى الفصـل الثلاثين، كاد قلـب صالـح أن يقـف بعـد أن انتهـى مـن قـراءة هـذا الفصـل فيـا تـرى مـاذا هنـاك بعـد الآن؟! هـل يعقـل أن تلخـص حيـاة صالـح المسـتقبلية بعـد الثلاثـين أيضًـا مسـطرة علـى صفحـات الفصـول المتبقيـة مـن الروايـة بـدءًا مـن الفصـل الواحـد والثلاثـين؟! اضطـرب عقـل صالـح واهتـز قلبـه فمـا كان يبحـث عنـه في سـوق الكتـب العتيقـة روايـة تبعـث فيـه الأمـل لانطلاقـة جديـدة في الحيـاة، أمـا الآن فهـو يقـرأ ماضيـه وحاضـره ومسـتقبله، فمـاذا هنـاك في المسـتقبل؟! تـردد صالـح كثيـرًا قبـل أن يبـدأ بقـراءة الفصـل الواحـد والثلاثـين ولكنـه قـرر أن يقـرأه ليجـد مـا تخبئـه أحـداث الحيـاة لعلـه يتجنـب أحزانهـا ويستبشـر بأوقاتهـا الفرحـة.

انشـرح قلـب صالـح وشـعر بسـعادة خفيـة في تجاعيـد عقلـه ولمحـات وجهـه عندمـا بـدأ يقـرأ تسلسـل الأخبـار السـارة خبـر يتلـوه خبـر في مـتن صفحـات هـذا الفصـل، بـدأت القـوة تحـل محـل الوهـن في جسـده والأمـل يطفـو فـوق الركـود والعـزم فـوق اللـين والحـب يغلـف كل مشـاعره فأصبـح يـرى العالـم كلـه وكأنـه خلـق مـن أجلـه ليسـتمتع بـه كيفمـا يشـاء، لـم ينـم صالـح قبـل أن ينهـي قـراءة هـذا الفصـل بالكامـل، نـام صالـح نومـة هنيئـة بعـد أن توضـأ وصلـى الفجـر

وركن على جنبه الأيمن كما قرأ في الرواية، نام والأحلام الجميلة والرؤى تملأ عقله يمينًا وشمالاً وفوق وتحت وهو غير مصدق أنه صالح الذي كاد أن يفقد كل آماله وأحلامه دفعة واحدة لولا إصراره أن يبحث عن شيء ما يجدد له حياته ولو بين سطور من الجمل على صفحات من كتب عتيقة لا يلقي أحد لها بالاً، نام صالح وكله أمل وشوق إلى صباح جديد يفعل فيه ما يحب ويهوى، نام صالح ولكنه لم يستيقظ بعدها أبدًا فقد كانت نومة النهاية قبل أن يقرأ ذلك المشهد في الفصل الأخير من الرواية.

●●●

زحمة مشاعر

«وقد تزدحم المشاعر وتختنق في شوارع الحياة الضيقة فيختلط الحزن بالفرح».

قارب العام على الانتهاء وحمل أيامه على كتفيه في سبيله للوداع غير عابئ ولا ملتفت وراءه لما خلفه من ذكريات حفرت في قلوب وعقول الناس. وكان عامي مليئًا بالأحداث السعيدة والحزينة ومليئًا بالمشاحنات وأيضًا الدعوات ومليئًا بالإنجازات والإخفاقات ولكن عادة ما تتفوق الهموم على السعادة في حفر أحداثها في القلب وهكذا أنا الآن تصارعني الهموم على حساب الأيام السعيدة «هكذا حدث محمود نفسه وهو يصفف شعره صباح هذا اليوم الذي ينتظره كل عام».

إنها أنانية مفرطة للهموم وكأنها خلقت من صمغ عربي يلتصق بالنفس ولا يتركها وكأن السعادة خلقت من هواء يدور حول صاحبه ويتركه عند أول هبة ريح، دون أن يدري جزَّ محمود على شفتيه وكأن هموم العام تسكن أسنانه وأرادت أن تنتقل إلى شفتيه.

حدث نفسه وليكن أنا الذي أقرر الأحاسيس، فلدي كل أنواع المشاعر، وقد قررت الآن وأنا في كامل قواي العقلية وبإجماع عام من كل خلاياه المخية وبمساندة من الخلايا القلبية أن أكون سعيداً وأن أنحي الهموم جانباً وأستدعي كل جوانب السعادة القابعة هناك في العقل الباطن لتكون في بؤرة العقل الظاهر، فأنا العقل وأنا القلب ولي الاختيار.

انشرح صدر محمود لقراره هذا ووضع يديه في جيوب بنطلونه وأخذ شهيقًا عميقًا وهبط درجات السلم من طابقه السادس دون أن يستخدم المصعد، وكأنه أراد أن يفعل القرار ليوم بالمفاجآت.

الأسبوع الأخير من هذا الشهر مليئ بأعياد الميلاد للعديد من الأصدقاء ولن يكفي المرتب لشراء الهدايا وكأن شهر ديسمبر اتفق مع أصدقائي عليَّ لكي يهلك ميزانيته كل عام، ولكن أنا أيضًا عيد ميلادي في هذا الشهر وهذا الأسبوع، أهي حقًا مصادفة أم أن أوقات الميلاد تنادي على القلوب لتتآلف؟! قد يكون أيهما فهناك الكثير من أصدقائي من ولد في أشهر مختلفة من العام.

ومن يدري لعل مقدار عمق الصداقة يتناسب طرديًا مع مدى تقارب أشهر الميلاد، ومن يدري فقد تكون العلاقة أيضًا عكسية. إنها فكرة رائعة لموضوع بحث احتماعي جديد، هكذا

حدث محمود نفسه وهو يمشي في الطريق الرئيسي بالحي الذي يسكن فيه تاركًا العنان لقدميه لتأخذه إلى حيث تريد.

إنه شعور رائع أن أحتفل بأصدقائي دفعة واحدة فهي فرصة لكي أعيد حساباتي مع كل منهم في نفس الوقت ليكون لكل هدية على مقدار عنفوان الصداقة، عمومًا يجب أن أختار أصدقاء المستقبل من مواليد أشهر أخرى بالعام وإلا تحول شهر ديسمبر إلى رمز الإفلاس لميزانية العام.

ابتسم محمود بهذه الدعابات الفكرية وهو يمشي الهوينة يتفرج على الفاترينات في الشارع المتلألئ بالأنوار والناس فيه إما واقفون أو سائرون ولكن الكل محدق على المعروض من المحلات وكأنهم يطوفون حول كعبة الشراء حجرها الأسود بضاعة فارغة فمها ينادي على الزبائن الذين لا يتركون بضاعة إلا ويتفحصونها ببطء وبنهم شديد وكأن أصحاب المحلات رشوا موادًا فاتحة للشراء على بضاعتهم.

لم تفلح كل أدوات الإغراء للشراء لجذب محمود فهو لا يدري ماذا يبحث عن هدايا لأصدقائه ولكن بالطبع ليس ما يراه فقد سئم من التكرار والتقليد، فهو يبحث عن شيء جديد، شيء يطوق السعادة.

لاحظ محمود طوقًا صغيرًا ذا تصميم راق وألوان رائعة فيها تناسق وهدوء جميل كتب عليه «أنت هديتي»، أعجبه الطوق والكلمات القصيرة المعبرة، وشرعت له فكرة جديدة في الاحتفال بعيد ميلاد أصدقائه ليكون الاحتفال فيه سعادة ومرح بطريقة مختلفة لعلها تكون مختلفة عن طريقة باقي الأصدقاء.

اشترى محمود خمسة أطواق وخمسة هدايا مختلفة وكتب تحت كل طوق «مع الحاء والباء والياء». وقرر أن يضع كل طوق في كرتونة بأحجام مختلفة وبدون أسماء ليتسابق الأصدقاء كل في التقاط هديته وبهذه الطريقة يترك خيال كل صديق لما تتوق له نفسه بحجم الكرتونة ليفاجأوا جميعًا أنهم لديه سواء، انتشى محمود بالفكرة وكأنه توصل إلى نظرية جديدة لجلب السعادة بين الأصدقاء.

الآن وقد اشتريت هدايا أصدقائي فلأكن أنا أيضًا مختلفًا هذا العام وأشتري أنا هديتي لنفسي. فإذا كان الآخرون يهدونني تعبيرًا عن حبهم لي فلماذا لا أهدي أنا نفسي فأنا أيضًا أحبها، فكر محمود كثيرًا عن شيء يشتريه ولكنه قرر أن تكون هديته مثل باقي الأصدقاء ولكن بأسلوب مختلف قليلاً، اشترى نتيجة العام الجديد ومعها نفس الطوق، وكأنه أراد أن يكون العام الجديد أيضًا عام سعادة وليكن هدية الزمن لمحمود.

اقتربت الساعة من الحادية عشر مساءً ومؤكد جميع الأصدقاء هناك للاحتفال بنصف دستة أعياد ميلاد بالإضافة إلى الاحتفال بالعام الجديد كما تعود الأصدقاء منذ أكثر من عشرين عامًا، ولكن هذا العام مختلف لما له من مذاق خاص فقد افترق الأصدقاء لأكثر من عشرة أعوام كل في طريقه وكل في بلد ولكنهم على موعد للقاء هذا العام والذي اعتبره محمود علامة للسعادة.

ولذلك قرر أن يجلب السعادة ولو بأبسط الهدايا، دق جرس الباب عند الصديق الأكبر والذي تعود الجميع على أن يكون اللقاء هناك في بيته وكم كانت أيام اللقاء رائعة ومليئة بالحب الذي كانت مشاعره الصادقة بخورًا ليوم اللقاء كل عام جديد، بخور وحجاب من كل ما يعكر صفو الأصدقاء طوال العام.

وما فتح أكبر الأصدقاء الباب حتى فوجئ محمود بطوق كبير من نصف دستة من الأطواق الصغيرة كتب عليها «أنت هديتي» ويتدلى منها قلب كبير كتب عليه أسماء الأصدقاء ووراء الطوق اختبأ كل الأصدقاء وهم يغنون أغاني عيد الميلاد فقد كان اليوم هو عيد ميلاد محمود، وهكذا تتوارد أفكار الأصدقاء عند اللقاء من بعد فراق.

أنثى الثورة

«الديار بالوطن قبلة القلوب؛ ولذلك تتساقط حبات المطر لتعود إلى أوطانها وإن كانت قد تبخرت منها».

«ما أراه بالوطن يا صديقي ينذر بأصعب الساعات في المستقبل القريب وأحلكها في المستقبل البعيد؛ ولذلك أريدك أن تهجر هذا الوطن الكئيب وتبحث لك عن وطن أخر تسعد وتهنأ فيه مع عروسك الذي تبحث عنه، عد إلى البلد الذي كان فيها ميلادك ومنحتك جنسية فوق مصريتك» هكذا كان نص معاذ في المشهد الأخير من الرواية، رد معتز عليه بحماس: «حزين أنا أن أسمع هذا النصح المستسلم للحاضر من صديق العمر الذي شاركني حبي لهذا الوطن، أراك قد فقدت النظر إلى وطنك يا صديقي، وعليك أن تبحث عن طبيب عيون ماهر لعمل نظارة جديدة تستطيع بها أن ترى وطنك من زاوية أخرى، وليكن هذا الطبيب هو تاريخ الأوطان».

صفق الحاضرون تصفيقًا حادًا كله حماس لمعاذ ومعتز على أداء أدوارهم في هذه الرواية التي تعرض كل يوم على خشبة

المسـرح السياسـي الجديـد الـذي دشـنته الدولـة لتثقيـف النـاس سياسـيًا ولكـن بطريقـة أدبيـة واجتماعيـة.

وكمـا همـا أصدقـاء في الروايـة، معـاذ ومعتـز أصدقـاء أيضًـا في حيـاة واقـع الحيـاة وعـادة مـا يقبلـون الأدوار الثنائيـة سـويًا ثـم يذهبـون لقضـاء الأمسـيات السياسـية في أحـد الصالونـات الأدبيـة.

تملـك معتـز اليـوم شـعور مختلـف عـن كل ليلـة، فمـع أنـه يكـرر نفـس الكلمـات كل يـوم أمـام الجمهـور علـى خشـبة المسـرح إلا إنـه أحس اليـوم بشـعور جديـد جعلـه يفكـر في كل كلمـة قالهـا ويفكـر في الإشـارات التلقائيـة التـي رآهـا مـن فتـاة كانـت مشـدودة إلـى كلامـه وتنفعـل بانفعالاتـه حتـى أنهـا نهضـت واقفـة لتحييـه عندمـا أنهـى جملتـه وأطالـت التصفيـق عـن باقـي الجمهـور وهـي تقـف ملوحـة بعلامـة النصـر.

إنهـا فتـاة عاديـة في المظهـر والشـكل كمعظـم الفتيـات المصريـات مـن هـم في العشـرينات مـن عمرهـن، ولكنهـا كانـت مختلفـة، عيونهـا يملؤهـا الأمـل، وسـواعدها تحـرس جسـدها باعتـزاز الأنثـى بذاتهـا وتعبـر بهمـا بعلامـات النصـر دون أن تـدري وكأنهـا تشـجع جنـودًا تحـارب علـى خشـبة المسـرح، لوحـت لـه الفتـاة وغـادرت المسـرح كباقـي الجمهـور ولكنهـا لـم تغـادر خيالـه ولا عقلـه.

إنه شاب مثلها ويقول هذه الجمل كل يوم ولكنه لا يشعر بها كما شعرت هي، هي أكثر حماسًا وتأخذ كلماته على محمل الجد وهو يرد على معاذ بكلماته القوية بأن يبحث عن طبيب يعالج فقدان بصره للوطن، إنه يقول هذه الكلمات بحماس ليس لأنه متحمس للكلمات ولكن ليتحمس الناس إلى تمثيله ويقتنعون به كممثل بارع.

أما هي فليست بممثلة ولكنها أتت لكي تشحن ضميرها الوطني بكلمات تتعايش معها وكأنها الخلاص لها مما تمر به البلاد من جراحات المشكلات السياسية التي تغوص في جسد الوطن الذي يئن من آلام مبرحة من جراء هذه الجراح.

هيا بنا يا معتز لنذهب إلى العشاء ومن هناك إلى المقهى الثقافي فالبرنامج اليوم رائع ومغذٍ للقلب والعقل والروح. ما رأيك يا معاذ في الكلمات التي نتفوه بها كل يوم أمام الجمهور والذي يصفق لها كثيرًا؟! إنها كلمات رائعة يا معتز ونقولها بطريقة حماسية منقطعة النظير ولذلك يصفق لها الجمهور والذي يزداد يومًا بعد يوم مما جعل الدولة ممثلة في الجيش أن يرسل لنا شهادة تقدير على التأثير الإيجابي الذي أحدثته هذه الرواية في الروح الحماسية للناس في حب الوطن.

ولكن ماذا عنك أنت يا معاذ أتفكر فعلاً فيما نقول؟! هل فكرت يومًا أن تترك الوطن بسبب الجراح؟! وهل لو فكرت بالفعل أني سأنصحك ألا تترك الوطن؟! أنا لم ولن أفكر يا عزيزي لأنني ناجح هنا والناس تعشق أدائي التمثيلي وبالتالي فلن تضطر أنت في نصحي، وما وراء كل تلك الأسئلة يا صديقي لم أتعود منك هذا؟!

لا تشغل بالك يا معاذ، مجرد أفكار واتتني الليلة وأنا أشاهد انفعالات الجمهور، الآن فهمت يا أستاذ، فأنا أتذكر تلك الفتاة التي كانت تتحرك وتهمس بشفتيها وأنت تتكلم وكأنها تلقنك كلماتك أو أنك تلقنها الكلمات، إنها فعلاً يا صديقي وأنا مدين لها بتغيير منحنى تفكيري الليلة، رائع يا صديقي ولكن هيا بنا، لن آتي اليوم يا معاذ فأنا سوف أقضي الليلة سائرًا فلم أفعل ذلك منذ زمن، كما تشاء ولنلتقي غدًا على خشبة المسرح.

مع أن الوقت كان باردًا إلا أن معتز شعر بدفء يسري في كل خلية في جسده، مشى على الكورنيش مرددًا نفس الكلمات معتزًا بنفسه وكأنه فارس مغوار أو كأنه قائد لجيش تحرير الوطن من آلامه، كيف لم أشعر بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمات قبل اليوم؟! أنا فعلاً ممثل قدير ولكني لست مواطنًا جديرًا بوطنه،

أمـا الآن فـأنـا ﴿ طريقـي لأكـون مواطنًـا ينشـد التغييـر، مواطنًـا يشـعر بالمواطنـة.

فجـأة شـاهد معتـز زحامًـا شـديدًا يـكاد يكـون مظاهـرة أمـام مبنـى إحـدى السـفارات ذات الأسـوار العاليـة والنـاس تـردد: «نعـم نعـم لـن نتـرك الوطـن»، دلـف معتـز جسـده بصعوبـة مـن بـين الأجسـاد المتزاحمـة رجـالاً ونسـاءً ليجـد أمامـه الفتـاة نفسـها واقفـة علـى خشـبة مسـرح الحيـاة وصوتهـا يعلـو وينخفـض والآذان تصغـي لحديثهـا وهـي تلهـب حمـاس النـاس وهـو جمهورهـا بـألا يتركـوا الوطـن ويرحلـون إلـى بـلاد تمتـص رحيـق روح أبنائـه مـرددة نفـس الكلمـات التـي يتفـوه بهـا معتـز كل مسـاء.

اندهـش معتـز وفـرح برؤيـة الفتـاة وهـي الفـارس المغـوار الحقيقـي وليـس هـو لمجـرد ترديـده لنفـس الكلمـات إمـا بهمـس ﴿ نفسـه أو بتمثيـل أمـام جمهـوره، هنـا الجمهـور الحقيقـي وهنـا أنـا معتـز الحقيقـي، لـم يـدرِ معتـز بنفسـه إلا وحماسـه يدفعـه دون أن يـدري ليقـف بجانـب الفتـاة مـرددًا كلمـات معـاذ والفتـاة تـردد كلماتـه، هنـا بـدل دوره بـدور معـاذ فـلا يليـق بالفتـاة إلا كلماتـه، ومـا إن رأى النـاس نجمهـم بجانـب الفتـاة حتـى صاحـوا مصفقـين وملوحـين بحمـاس منقطـع النظيـر ومردديـن: «نعـم نعـم لـن نتـرك الوطـن».

ابتسـمت الفتـاة فأمسـك معتـز بيديهـا ليرفعهمـا عاليًـا معبـرًا عـن إعجابـه ببطولتهـا في واقـع الحيـاة هامسًـا لهـا هنـا هـي الحيـاة وهنـاك مجـرد مسـرح للحيـاة، شـدت الفتـاة علـى يديـه وأخذتـه إلـى خـارج المبنـى مـرددة بحمـاس: «نعـم نعـم لـن نتـرك الأوطـان»، وتبعهمـا النـاس مرددين الشـعار وامتـلأت الشـوارع بالشـعار حتـى فوجـئ معتـز بمـن يهديـه تحيـة لحماسـه علـى المسـرح والحيـاة، فمـا كان منـه إلا أن قـدم التحيـة إلـى الفتـاة فهـي الأنثـى التـي جعلتـه مواطنًـا يعـرف كيـف يحـب وطنـه، مواطنًـا بـين النـاس، مواطنًـا جديـرًا بحـب وطنـه وحـب النـاس، مواطنًـا جديـرًا بأنثـى الوطـن.

●●●

مفاجأة أسبوع السعادة

«لحظات السعادة كحبات الخرز إن لم يصنع منها عقد بخيوط من الأمل تتناثر في ثرى أيام العمر».

تجمع الأصدقاء حول المائدة كما يحلو لهم كل خميس لتكون ليلتهم حتى الصباح، توسط محمود المائدة طالبًا من أصدقائه السبع الصمت ليعلن عن مفاجأة المساء والأسبوع، اتفق الأصدقاء على أن يستضيف كل واحد منهم المجموعة كل أسبوع في بيته أو كما يحلو له على أن يقدم مفاجأة تسر الجميع، وكانت معظم مفاجآت الأصدقاء تدور حول النساء والرقص والمنشطات والغناء والمسابقات المجنونة والمجون نفسية كانت أو جسدية، واليوم كان الدور على محمود ليعلن عن مفاجأته التي توقع الجميع أن تكون أكبر المفاجآت فهو أخر من في المجموعة والكل يتطلع إلى ما في جعبته بأنه أفضل مما قدموا حتى الآن.

وفي اللحظات التي رفع فيها محمود الكأس ليدق عليه الثلاث دقات بطرف الملعقة التي بيده ليسكت الجميع، انتشى عقله أيما انتشاء وهو يتفحص عيون أصدقائه ليرى فيها لهفتهم على مفاجأته التي سوف ترقص لها كل خلية في جسدهم فرحًا

لما فيها من متعة خاصة جهزها هو لكل خلية حتى ينتشي الجسد كله مرة واحدة، ولما لا وهو الأوسم والأطول والأيسر والمدلل من قبل والديه وخاصة أمه التي يعلم الجميع أنها تعامله كأخ وأب وصديق، وأثناء تلك اللحظات الجميلة التي تخيل فيها نفسه الفارس الذي تتجمع الحياة حوله وتحت قدمي فرسه الذي لا تشق له غبار، انتشى محمود أكثر- وعلت شفتيه ابتسامة كبيرة وفي داخله ضحكة أكبر يؤجلها لما بعد الإعلان عن المفاجأة- وهو يفتخر بنفسه في قدرته على إخفاء ما يحدث كل أسبوع من مجون عن أبويه وفي نفس الوقت يبدو لهما الابن الذي تجمعت فيه كل صفات الأبناء النبلاء الأوفياء، يالك من وغد كبير، همس محمود في نفسه والابتسامة لا تفارق شفتيه فخورًا بكل خلية في عقله ساعدته في إظهار هذا الذكاء الخارق.

صمت الجميع وكأن على رءوسهم الطير وكلهم شوق إلى المفاجأة المدوية التي يتوقعون أن تهز أركان الغرفة التي امتلأت بدخان السجائر والماريجوانا والحشيش والبخور على أنغام الموسيقى الصاخبة، وقبل أن يعلن محمود عن مفاجأته، دق الباب من غير توقع وتردد محمود أن يفتح الباب في هذا الوقت المتأخر من الليل وفي هذه الحالة النشوانية التي يحلق فيها أصدقاؤه في غرفة من شقته التي أهداها له والده وأمه فور تخرجه من كلية الهندسة فخرًا به وبنجاحه، خفض محمود يده والكأس بها

والغضب يفور من كل وجهه وعلق لحظة الإعلان عن المفاجأة وهم حتى يرى من الذي تجرأ أن يأتي في هذه اللحظة الفاصلة في أسبوعه ليقطع عليه نشوة التفوق على مفاجآت أقرانه.

نظر محمود من العين السحرية للباب فوجد نفسه أمام مفاجأة أخرى لم يستطع أن يتجاهلها. سيدة تقف أمام الباب بظهرها ولا يرى منها إلا خلفية رأسها الذي ترتدي عليه طرحة لم يتبين ما تحتها وكأنها تتعمد ألا يتعرف عليها من يفتح الباب حتى تفاجئه، السيدة إحدى يديها تتأبط كتابًا يبدو أنه مقدس وتتأبط يدها الأخرى علبة صغيرة مغلفة بطريقة أنيقة يبدو منها أنها هدية جميلة لشخص ما في هذه الغرفة، يا ترى من هذا المحظوظ الذي جاءت له هذه الفتاة في هذه اللحظة وفي هذا المساء لتمنحه هذه الهدية دون الآخرين؟! من هذا الذي جاءت له هذه السيدة لكي تفسد عليه لحظة الإعلان عن أكبر مفاجآت الأسبوع ولحظة الانتصار والتفوق، سأل الجميع محمود وكلهم لهفة من على الباب لكي يطمئنوا أنهم في مأمن، أومأ إليهم أنهم في مأمن وأنهم في انتظار سيدة على الباب تحمل هدية لأحد منكم وإني في شوق لأعرف من هذا العربيد الذي أراد أن يفسد عليَّ مفاجأتي الليلة.

هـمَّ محمـود بفتـح البـاب ووراءه أقرانـه السـبعة والجميـع في شـوق ليـروا الفتـاة الجريئـة والـكل يمنـي نفسـه أن يكـون صاحـب اللحظـة. تعالـت الهمهمـات والابتسـامات والضحـكات المنتشـية والعيـون الجائعـة لمـن وراء البـاب، فتـح محمـود البـاب ليـرى جسـد السـيدة كامـلاً والمغطـى بالثـوب الفضفـاض الجميـل، اسـتدارت لـه بحركـة مفاجئـة لتعطـي لـه الهديـة وتحتهـا الكتـاب ويعلـو وجههـا ابتسـامة كبيـرة قائلـة: كل عـام وأنـت طيـب يـا محمـود، اليـوم عيـد الأم وأنـت أطيـب ابـن لأسـعد أم.

كاد محمـود أن يغمـى عليـه مـن هـول المفاجـأة التـي صمـت الجميـع أمامهـا فقـد كانـت حقًـا أكبـر مفاجـآت الأسـبوع التي ظـن الأصدقـاء أنهـا مـن صنـع ذكاء محمـود، فقـد كانـت أم محمـود.

●●●

ثورة الأمنيات

«لكم تمنيت أن يكون لون الدم أبيض حتى لا نراه على الأيادي والصدور والرءوس المقتولة».

عين على القطار وعين على الرصيف الذي يعج بالمسافرين والعائدين بمقاصدهم المختلفة. فهو يرجو لنفسه ركوب القطار ليأخذه إلى مقصده الذي تمناه وهو العمل خارج البلاد لعله يستطيع أن يحقق أحلامه، ولأنه ارتبط بهذا المكان وهؤلاء الناس من الأهل والأصحاب والجيران فكيف له بعد هذه السنين أن يترك كل هذه الذكريات ويرحل إلى تلك البلاد خاصة أن قدميه لم تطأها من قبل على الإطلاق، وقف سامح وبصره وعقله متعلقين باتجاه المطار وقلبه متشبثًا بالرصيف، والقطار يزمجر بصوته معلنًا عن تحركه إلى اتجاه القاهرة.

تعجب سامح من العراك الداخلي في الإنسان بين مشاعره واحتياجاته، بين قلبه وعقله، بين الواقع والخيال، وتعجب كيف يفكر الآن في قرار اتخذه منذ شهور وأنفق عليه كثيرًا من المال ثم غنى له طويلاً لما علم بخبر فوزه بإحدى الوظائف في شركة

بتـرول في تلـك الدولـة الغنيـة الكبيـرة، إنهـا قـد الذكريـات وحنـين المشـاعر التـي تهـب كريـاح الخماسـين علـى أوراق واقـع الأحـداث فيجعلهـا تختلـط وتتشـابك وتضطـرب، ولكـن لحسـن الحـظ فـإن ريـاح الخماسـين موسـمية ولا تبقـى طويـلاً وإن اقتلعت بعـض أشـجار الواقـع مـن جذورهـا.

استجاب سـامح لصفيـر القطـار الـذي لـم يتوقـف حتـى خـرج مـن المحطـة محمـلاً بركابـه الذيـن حملـوا معهـم متـاع الحيـاة وأفكارًا ومشـاعر لـو انطلقـت مـن العقـول والقلـوب ليقرأهـا المسـافرون علانيـة لتوقـف القطـار حرصًـا علـى رغبـات ركابـه وتضامنًـا مـع مشـاعرهم. ولحسـن الحـظ فـإن الأفكار والمشـاعر ملـك صاحبهـا، لـه وحـده دون الأخريـن طالمـا لـم تخـرج مـن قلبـه وعقلـه حتـى وإن غـط في نومـه في رحلـة تزيـد عـن يـوم مـن السـفر مـن الصعيـد إلـى بلـد المقصـد.

تزاحمـت المشـاعر في أجـواء وسـماء نفـس سـامح وكأنهـا أسـراب مـن طائـرات حربيـة تحلـق في كل الاتجاهـات والارتفاعـات بصـوت محركاتهـا النفاثـة دون أن تصطـدم أو تتصـادم بأجنحتهـا فهـي فقـط تعلـو باحثـة عـن مـكان علـى بسـاط نفسـه لعلهـا تهبـط فيـه بسـلام وأمـان.

فهناك طائرات محملة بذكريات الحب وأخرى بذكريات الأمل وبمستقبل ناجح في العمل والاستقرار الاجتماعي، وطائرات أخرى تحمل أمنيات امتلاك متطلبات الحياة الكريمة بلا حرمان إلى استدانة وطائرات محملة بالذنوب الصغير منها والكبير، وطائرات محملة بمشاعر البنوة الحالمة للوالدين وحبهما الذي يعمر القلب إلى حنانهما الذي لا يضاهيه أو يماثله حنان، وطائرات محملة بمشاعر الإيمان بالله وحبه بالدعاء إلى الله بالتوفيق والسداد والمغفرة.

تعجب سامح كيف تحمل نفسه كل هذه الحمولة من الإيمان والحب والآمال والهموم والأوجاع على متن طائرات تحلق في صدره وأجواء نفسه وهو في هذا القطار الذي يجري ولا يأبه بأفكار ركابه، هو فقط يجري إلى نهاية طريق يمثل لسامح بداية حياة، إنه ثوب القدر الذي يلبسه الناس مفصلاً من الله وفي جيوبه كل أمتعة الحياة بحلوها ومرها.

ترك سامح الطائرات تحوم في صدره وهو ينظر من شباك القطار مبتسمًا يا ترى من يسبق الأخر الطائرات في أجواء نفسي أم قطار الغربة والأحلام. ولكن كلما أوغل القطار في طريقه وقطع المسافات وترك القرى والمدن خلفه كلما هدأت محركات الطائرات

في أجوائه حتى سكنت في النهاية ولم يبقَ ما يحلق هناك في هدوء سوى طائرات الإيمان بالله والآمال المعلقة على الموطن الجديد بغد أجمل كله توفيق، هدأ بال سامح لما رأى الخضرة على امتداد البصر وخلد إلى نوم سكن عيونه كان يطارده منذ أيام.

فوجئ سامح بنفسه داخل غابة من الجبال الشاهقة نحت في جوفها بيوت كبيوت قوم عاد خالية على عروشها تطل منها رءوس ثعالب تنتفض تجاهه لتنهش لحمه وعظامه وهو يحاول أن يهرب منها فينكب على الأرض بوجهه ليجد نفسه مكومًا فوق أشواك من الثعابين تتنافس للدغه وعصر عظامه.

تتحشرج أنفاسه بين ضلوعه ولا يستطيع أن ينهض إلا بدفعة غير مقصودة من ثعبان أقرع فيجري سامح بكل قوته على أجساد الثعابين ليجد الأرض وقد تحولت فجأة إلى سجادة من رءوس أشواك تقطع لحاء قدميه لتسيل دماؤه ملونة الأشواك بلون دمائه التي سالت معها أحلامه وآماله قطع مجمدة تدوسها أقدامه وهو يحاول الهرب من نفسه وممن حوله.

كاد سامح أن يفقد وعيه ليقع على الأرض منهكًا بين بقايا أحلامه وآماله المجمدة والأشواك المغروسة في قدميه والجبال والسماء تقترب منه حتى كادت أن تنقبض عليه في ظلمة لا يستطيع

أن يـرى فيهـا كـف يديـه، استسـلم سـامح إلـى الحيـاة المدججـة بـالآلام الداميـة والتـي اجتمعـت فيهـا كل أسـباب المـوت الـذي يتمنـاه الآن هديـة مـن اللّه إن شـاء.

وفي حشـرجة أنفاسـه التـي أوشـكت علـى النفـاد فوجـئ سـامح بسـواعد مـن طيـب تهدهـد أنفاسـه وتضمـد جراحـه وتحمـل جسـده مـن فـوق الأشـواك بلطـف الأب وحنـان الأم. نظـر سـامح إلـى هـذه السـواعد الطيبـة التـي تريـد إنقـاذه وتأمّل حدودهـا، غيـر قـادر علـى لمسـها مـن شـدة إجهـاده، ابتسـم ابتسـامة انفرجـت معهـا أسـاريره وأشـعلت في جسـده الحيـاة عندمـا رأى وجهـي أمـه وأبيـه في نهاية تلك السـواعد ضاحكـة مضيئـة كمشـكاة مـن أقمـار في ظلمتـه الحالكـة.

ولمـا رأى وجـوه أبويـه الضاحكـة نهـض سـامح ليقبـل تلـك السـواعد ولكنـه فوجـئ أن السـواعد تشـكلت علـى هيئـة سـجادة مـن سـندس مطمـور تحتهـا لجـة مـن ميـاه دافئـة تجمعـت فيهـا كل أسـباب الحيـاة فاشـتد عـوده وعـادت أنفاسـه الهاربـة مـن روحـه محملـة بالآمـال والأمانـي الطيبـة، وفي لمـح البصـر وجـد سـامح نفسـه يطيـر بـين الجبـال الشـاهقة في واحـة مـن أشـجار في سـهول يفترشـها بسـاط مـن سـندس أخضـر يانـع يسـر العـين والقلـب.

اندهش من هذا التحول السريع بين مظاهر الخوف والقلق في ظلمة الجبال التي تعثو بينها الثعابين وتسكنها الثعالب إلى الجنة على الأرض مترامية الأطراف حوله، ولكن تحول هذا الانشراح إلى انقباض في القلب لإحساسه بوحدة قاسية فلم يكن هناك حوله لا إنس ولا حيوان حتى كاد أن يعود إلى ظلمة الجبال حتى لا يكون هنا وحيدًا بلا ونيس، وقف سامح حائرًا بين السهول باخضرارها وجمالها وسكونها وبين الجبال بظلمتها وحيواناتها الضارية ولا يدري أيبقى هنا أم يعود هناك؟!

وفي وسط هذه الحيرة، استيقظ سامح على صوت انفجار هز داخله وكل شيء حوله، انفجار هز القطار والركاب ففزع وصرخ الأطفال والنساء وقفز الرجال يمينًا وشمالاً ولا يدرون ماذا هم فاعلون وتوقف القطار عن السير فقد انحرفت عجلاته عن القضبان نتيجة للانفجار.

تعالت الأصوات تسأل عن السبب وماذا حدث ولكن لم يستطع أحد التوصل إلى أي نتيجة سوى أن هناك بعض الإصابات بين الحرجة والخفيفة ولم يكن هناك أية وفيات، تنفس سامح الصعداء وحمد الله أنه مازال هنا في القطار بعيدًا عن الحيرة بين السهول والجبال في الحلم الذي عاشه وكأنه الدهر كله.

وقـف سـامح وسـط القطـار المعطـل حائـرًا كمـا كان حائـرًا في حلمـه، أيكمـل المشـوار إلـى أخـر منتهـاه ليبـدأ عملـه الجديـد في البلـد البعيـد ليسـتمتع بامتيازاتـه بعيـدًا عـن الأهـل ومسـقط رأسـه أم يعـود إلـى ديـاره بـين أهلـه وأقرانـه ليغـازل ويعـارك الشـقاء، تشـابهت أحـداث الحلـم مـع الواقـع فقـرر أن يسـتمع إلـى قلبـه ليريـح عقلـه بـدلاً مـن أن يسـتمع إلـى عقلـه ليتألـم قلبـه.

وكان القـرار الـذي أبعـده عـن قضبـان القطـار الواقـف بسـبب الانفجـار وهـو العـودة إلـى الديـار فقطـار الحيـاة وإن تعطـل فـالأرض قويـة تحـت القضبـان.

●●●

حديث من وهج

«حينئذ تمنيت أن تكون عربتي باتساع العالم أديرها بمفتاح الحياة».

أحسست بحالة اختناق لا شعورية انتابتني من جراء هذا الزخم من الصراعات السياسية والمظاهرات الكلامية فقررت أن أقود عربتي إلى حيث أريد فهي فقط التي أستطيع قيادتها، فكل شيء أخر تمرد وأصبح بدون قائد أو طريق، ارتديت بذلتي الأنيقة ونثرت البيرفيوم على وجهي محاولة مني أن أتجمل لعلي أخرج من هذا الشعور الخانق.

ركنت عربتي على جانب الشارع فطالما أحببت أن أترجل في طرقات الحواري الضيقة التي تعج بالناس المنكبة على أدوات العمل المختلفة لتعزف بها وهي لا تدري أجمل القطع الموسيقية التي لا تضاهيها أروع سيمفونيات بيتهوفن، أحببت الترجل وأكتاف الناس تلامس كتفي من شدة الزحام ومن ضيق الطرقات وكأن الناس هنا لا يكتفون بتحية السلام بل أيضًا بسلام الأكتاف، انتشيت بكل ما رأيت من وجوه خط عليها الزمن خطوطه صعودًا

وهبوطًا وأياد ٍتتحرك كروبوتات تعمل بلا توقف دون أن تؤثر على حركاتها الفكر الذي يسيل من العقل والهموم التي تسكن القلب.

أحسست بهؤلاء الناس أيما إحساس وتعجبت كيف لا يحصلون على أعلى الشهادات في هذا الفن العملي الإبداعي المنتج، فقد كنت هنا يومًا ما روبوتًا صغيرًا مثلهم ولكن كانت أفكاري تسافر كل يوم خارج نطاق الحارة ثم تعود لتلقي بأمانيها داخل رأسي قبل خلودي إلى النوم.

نزعت عني البذلة السمراء وشمرت عن ساعدي واستأذنت صاحب الحديد أن أمسك بقطعة حولتها نيران الفرن إلى ساق حمراء ورحت أضرب عاليها وأسفلها كما كنت أفعل وأنا صغير حتى استوت ولانت وتشكلت على هيئة مفتاح الحياة، شعرت وأن قوى العالم سكنتني وأن الراحة تملكتني وأن الأفكار تجاملني وأن الهموم ذابت بقلبي فصارت أنفاسي تغني في شهيقها وزفيرها وكأن جسدي كله رئة لأنفاسي.

حينئذ تمنيت أن تكون عربتي باتساع العالم أديرها بمفتاح الحياة هذا وأقود أهل تلك الطرقات الضيقة إلى عالم أخر هو عالمي الآن لكي يعلموا ويتيقنوا أن عالمهم هو العالم الحقيقي الذي تسكنه وتتلألأ فيه الحياة التي غابت عن عالمي المتصارع، عالم

يضرب على القلوب بنيران العقول حتى تحولت القلوب إلى كتل من حديد انصهرت فيها رقة المشاعر.

ودون أن أمحي آثار ذرات الحديد الساخن من على كفي، ألقيت بذلتي على كتفي وودعت الناس وسواعدهم التي مازالت تحمل أدوات العمل تلوح لي وكأنها طريقة أخرى للسلام، مشيت وكلي نشوة تجاه عربتي خارج الطرقات الضيقة لأقودها لعلي أستمتع باسترجاع شعور لقاء الأصحاب هذا أثناء عودتي ولكني وجدت عربتي تحت أقدام المتظاهرين وقد تحولت هي الأخرى إلى قطع من حديد تغطيه نيران الغضب الذي لا يرى ولا يسمع ولكنه يتكلم.

رميت مفتاح عربتي بين قطع الحديد المتبقية منها ورجعت إلى صاحب الحديد أبحث عن مفتاح الحياة الذي صنعته لأصنع منه المزيد وأبيعه لعلي أجد من يشتريه بعيدًا عن الطرقات والحواري الضيقة.

●●●

أوجاع الصمت

«أتعجب أين تتولد الدموع؟! هل من صهد العقول أم من وهج القلوب أم من أوجاع وأحزان العيون؟! إنها حقًا مياه الروح، ولألئ المآقي».

اتجه إلى كرسيه المفضل في الكافيتيريا التي تعود أن يقضي فيها أحلى أوقاته مع أصدقائه حينما يتاح للجميع الوقت للسمر ومناقشة الأمور الخاصة والعامة وأخذ الآراء في خطط الحياة التي لا تنتهي.

أقبل النادل بصوته المرح عندما رأى علي فهو لم يره منذ فترة طويلة نظرًا لسفره في حضور ورشة تدريب على اكتساب مهارات استخدام البصمة الجينية في التعرف على الصفات السيئة والحميدة.

علت وجه النادل بسمة واسعة وهو يسلم بحرارة ولكنها نظرة مملوءة ببعض الحزن الذي يحاول جاهدًا أن يخفيه ولكن لم يشأ علي أن يسأل عن ذلك الآن. النادل يكاد يكون أحد أصدقاء المجموعة فهو زميل الجامعة ويعرف عنهم الكثير ويتناقش معهم بين الفينة والأخرى عندما تتاح له بعض الدقائق.

سـأل علـي عـن عثمـان ولـؤي وسـعيد وفـوزي وميخائيـل وشـكري وهيـكل أصدقـاء الطفولـة وأبنـاء نفـس الحـي والأحيـاء المجـاورة وعـن النـادل المشـهور بسـقراط لتدخلـه في المناقشـات بأقـل الـكلام وأقـل الوقـت المتـاح لـه أثنـاء عملـه. أومـأ سـقراط برأسـه بـأن كل شـيء علـى مـا يـرام وسـأحكي لـك عندمـا تحتسـي مشـروبك السـاخن.

مجموعـة رائعـة ومتجانسـة مـن الشـباب الـذي تعـود علـى حريـة المناقشـة مـع بعضهـم البعـض كمثـال يتمنونـه واقعًـا في الحيـاة العمليـة عامـة والسياسـية خاصـة، أقسـموا أن يكونـوا يـدًا واحـدة وأن يعملـوا للصالـح العـام وليـس الخـاص وألا ينقلـب أحدهـم علـى الأخـر حتـى لـو أراد.

صـاروا علـى هـذا النحـو بحـب وتفاهـم فنجحـوا في كسـب قلـوب مـن يعرفهـم حتـى اقتـرح عثمـان علـى الأصدقـاء أن ينظمـوا نـدوات في الكافيتيريـا في أمـور عامـة مثـل واجـب الصداقـة، التفانـي في العمـل، أسـاليب الاحتـرام، السـلام الاجتماعـي، التعـاون البنـاء، والمواضيـع الأخـرى دون التعـرض لأمـور دينيـة بحتـة أو سياسـية فهـم لا يدركـون أسـاليبها ولا يريـدون أن يفسـدوا علـى أنفسـهم صفـو الجلسـات الممتعـة بتدخـلات أمنيـة هـم في غنـى عنهـا.

ميخائيل شاب طموح يرى الدنيا قوس قزح يريد أن يتعلق به ليكون دائمًا هناك تحت الأضواء.

وعثمان شاب هادئ عندما يتحدث يبدو وكأنه واعظ في الستين لشباب مراهقين ومع ذلك لا يملك الجميع إلا الإنصات إليه حتى لو كان حديثه عاديًا فيكفي أنه يطبع سمة الهدوء والوقار على الجلسة، وهيكل هو فيلسوف المجموعة يرى كل شيء من منظور فلسفي خيالي دائم البحث عن أرضية واقعية.

أما شكري وسعيد وفوزي فهم مثل التفاح والبرتقال والفروالة كل له مذاق خاص ولكن لا يحلو الكلام ولا يكتسب أهميته إلا بإنصاتهم وتحليلاتهم واستنتاجاتهم ثم ضحكاتهم التي تضفي على الجلسة الإحساس بالتفاؤل والصحبة الجميلة. ويكفي أنهم من كانوا وراء فكرة استخدام رمز يوحد أهداف المجموعة حتى وإن اختلفت أفكارهم، وقد كان الرمز سرًا حتى لا يفسد معناه البوح به قبل ميعاد الإعلان عنه لمن هم على صلة بالمجموعة لعل الرمز وهدفه يصير عدوى بين الناس.

ولؤي هو الصامت المتأمل بكل حواسه والذي يضفي على المجموعة وقار الصمت الذي لا يعرفونه ولكن لا يمنعونه بل يتأملونه.

وما كاد النادل أن يرحب بعلي ويسأله عن المشروب الساخن الذي يفضله حتي فوجئا بمن يلقي الهمزات واللمزات من طاولة قريبة في الكافيتيريا عليها شباب يترددون على المكان ويعرفهم علي من وجوههم، تعجب علي من طريقة الحديث والإيماءات التي يطلقها الشباب كالرصاص الموجه بدقة إلى عقل علي فهمَّ أن يعبر عن غضبه تجاه هذا الأسلوب المشين والذي لم يتعود أن يلمسه في هذا المكان من قبل.

أمسك النادل بذراع علي وجذبه ليجلسا بعيدًا عن هذه الطاولة حتى يهدأ، استجاب علي إلى إلحاح النادل وأخذ طاولة أخرى ولكن تكرر الموقف بإيماءاته وهمزاته ولمزاته، حينئذ لم يتمالك علي نفسه واتجه غاضبًا إلى هؤلاء الشباب معاتبًا وناهرًا.

تعالت الأصوات وتشابكت الأيدي بقوة وعلي يحاول أن يدافع عن مجموعته التي طالتها رصاصات الهمزات تلك فقد كانت معظمها موجهة إلى علي وبعض من أصدقائه في المجموعة دون غيرهم.

توقف علي فجأة بعد أن رأى إحدى الأيادي، قد ارتفعت عاليًا وبها هلال يحتضن صليبًا ومكتوب على يد الهلال عبارة «تمني الأصدقاء»، انزعج علي كثيرًا وترنحت يداه وسقطت هامدة بجانبه وكأنها أصابها الشلل فما رآه هو الرمز الذي اتفق عليه الأصدقاء ليكون رمزًا لفكر مجموعتهم.

الآن تذكر علي الحزن الذي اختفى وراء ابتسامة النادل سقراط عندما سلم عليه، وتذكر سبب لمعان عينيه عندما سأله عن الأصدقاء عامة وأحد الأسماء خاصة والذي كان دائم الإنصات وقليل الحديث حتى أطلقوا عليه صاحب الصمت العميق، أدرك علي الآن كيف أن للصمت العميق أن يتحدث وبقوة عن سر الأصدقاء ليكون أداة للهمز واللمز والهمهمات.

توقف علي عن الدفاع وعاد إلى طاولته وهو يجر أذيال الخيبة في غدر الأصدقاء وأسند ظهره على المقعد وأطلق خياله يفكر أين باقي الأصدقاء الآن؟ وأين سيكون هو بعد الآن؟

وسرعان ما تذكر ورشة العمل التي حضرها عن استخدام البصمة الجينية لتحديد أصحاب النفوس الحميدة والخبيثة، كم تمنى الآن أن يحصل على نقطة دم واحدة ليكشف منها النفوس حتى يحقن سيل الدماء، ولكن هيهات فالحصول على نقطة دم كهذه أصعب من سيل الدماء في المعارك.

مد سقراط إصبعه إلى علي ليأخذ قطرة من دمه، ولكن نهض علي وترك المشروب الساخن والمكان وأطلق قدميه تضربان الأرض وعينيه إلى الفضاء مخاطبًا السماء.

●●●

سيدة

«تمتلئ الحياة بأناس بسطاء، ولدوا بسطاء وفارقوا الحياة بسطاء».

جلست متربعة فوق مصطبة بيتها الطيني الذي يتوسط البنايات العالية في قريتها التي عاشت فيها أعوامًا كثيرة لا تدري كم عددها وإن كان الجيران يؤكدون لها أنها أم الأمهات فهي صاحبة الثمانية والثمانين عامًا تحملها فوق أكتافها وتسري أيامها بين خطوط العمر التي رسمتها الأيام على وجه سيدة المبتسم وكأنه طفل مازال يحبو.

تعوَّد أهل الحارة بل أهل البلدة على قرفصاء سيدة وعلى انحناءة ظهرها الخفيفة وهي تروح وتجيئ سوق الثلاثاء بالقرية لتشتري حاجياتها بنفسها، إزيك يا سيدة، إيه أخبارك؟ وترد سيدة صاحبة الثماني والثمانين، أنا بخير يا حبيبي طالما أنت بخير، اتفضل يا خويا، والناس كلها عند سيدة أحبابها وأخوتها. ويتمتم الرجل بعد عدة خطوات: أنتِ لسه عايشة يا سيدة، الموت نسيكي من زمان، ياريت بس احنا نعيش قدك، ده أنتِ معجزة يا

سيدة، أكيد نايمة على فلوس كثيرة تحت البلاطة من الصدقة والزكاة من هنا ومن هنا، أه يا سيدة لو أطولك وأنتِ بتموتِ، هتكون كل الفلوس دي من نصيبي.

وصوت النساء ينادي عليها، صباح الخير يا سيدة، مش عايزة حاجة نعملها لك واحنا معديين عليكي كده؟ لأ يا حبيبتي بس ياريت لو بس تاخدي معاكي شوية الميه اللي تحت الفنطاس ترميهم. وماله يا سيدة، احنا مالناش بركة إلا أنتِ، وتدخل الست لتحمل المياه الوسخة لترميها على جسر القرية ووراؤها دعوات سيدة، ربنا يخليكي يا بنتي ويسترها معاكي وما يحوجكيش لحد أبدًا ويباركلك في ولادك، ولا يوقف دعوات سيدة إلا غياب الست بعيدًا، وتتمتم الست لزميلاتها وهي تحمل المياه، يا ختي الست القرشانة دي طولت قوي، هو الموت مش هيفتكرها بقى، يا ختي دي عاشت قد أمي مرتين، وتعود الست بالفنطاس فارغًا وتقابلها سيدة مرة أخرى بسيل من الدعوات حتى تختفي الست مرة أخرى عن أعين سيدة.

ويجري حول سيدة أطفال الحارة ينادونها بسيدة ويرمونها تارة بالكلام القاسي في شقاوة الأطفال ويمسكون ذيل ثوبها الهش تارة ويشدون سلتها المحملة بخيرات السوق على كتفها تارة أخرى.

ليـه بـس كـده يـا ولاد، بـس يـا حبايـب سـيدة، ولكـن كلماتهـا وصوتهـا العجـوز يثيـر فضـول الأطفـال فيزيـدون مـن لهوهـم معهـا، ولا تـرد سـيدة إلا بضحـكات وابتسـامات. ويلـف الأطفـال حولهـا ويغنـون، سـيدة يـا سـيدة يـا أم عنـين متبهدلـة، سـيدة يـا سـيدة يـا أم عصايـة مسوسـة، سـيدة يـا سـيدة يـا سـتنا الحنينـة، وتضحـك سـيدة وتـوزع ابتسـاماتها علـى أطفـال الحـارة وتدعـو لهـم وتعطيهـم قطـع الحلـوى التـي تحفظهـا لهـم ولا تأكلهـا أبـدًا لتهديهـا لهـم وتشـعر بالسـعادة وراحـة البـال.

غابـت الشـمس ورمـى الليـل سـكونه علـى القريـة، وخـلا كل ونيـس بونيسـه وانتصـف الليـل العنيـد وسـكن خـارج جـدران البيـوت التـي تعـج فيهـا الحركـة ولهـو الأطفـال وعـراك الأزواج وصـوت التلفـاز وصـوت المعالـق والأطبـاق، ويبقـى الليـل يسـري بـين البيـوت ليتخلـل الأبـواب الوحيـدة ويبقـى هنـاك مـع القلـوب الوحيـدة ليجـد سـيدة ملقيـة ظهرهـا المحنـي علـى جـدار غرفتهـا التـي أكلتهـا سـنون العمـر والنـور الخافـت للمبـة الجـاز التـي مازالـت تصـر عليهـا يضيـئ ظلمـة غرفتهـا.

وينـام الليـل علـى صـدر سـيدة وفي حضنهـا فتبتسـم وتفـرح بظلمـة الليـل التـي زارتهـا وبـددت وحدتهـا. وتغلـق سـيدة رمـوش عينيهـا التـي

مازالت ترى الحياة جميلة لتنام على جانبها اليمين واضعة إحدى يديها تحت خدها الأيمن واليد الأخرى على جانبها الأيسر لتعيش أحلامها كل مساء مع زوجها الذي فارق الحياة منه عشرة أعوام وأولادها الذين هجروا القرية والبلاد كلها إلى الخارج بعد أن حصلوا على أعلى الدرجات، وأحفادها الذين لم ترهم إلا مرتين ولكن صورهم في قلبها تتحرك وتغني وتنام وتصحو وتناديها بتيتة سيدة.

وتنام سيدة نومة كل يوم في حضن الليل على أمل الأحلام وذكريات الطفولة والصبا والشباب الذي كانت تزينه ملامحها التي يتهافت عليها أهل القرية لجمالها الفتان، ولعلها تقابل في أحلامها حبها الأول والأخير لزوجها وسنوات العمر الجميلة التي كانت فيها أميرته وحبيبته ونيسته وكان لها هو أمير الأمراء وفارس الفرسان ورجل الزمان والمكان.

تبتسم سيدة وتغمض عينيها على أمل لقاء الأحبة هناك في أحلامها لتعيش هناك أيامها بحلوها ومرها بعيدًا عن رجال الحارة بهمزاتهم ونساء القرية بلمزاتهم وأطفال الحارة بمقالبهم، تنام سيدة وحدها تاركة شفاهًا مبتسمة كالعادة وتتذكر كيف كان بيتها ملجأ الأيتام ومهبط النساء ودوار الرجال، تنام سيدة على ذكرياتها وهي التي كانت السيدة، السيدة في بيتها وفي حارتها وفي أهلها، تنام سيدة

بعد أن أرهقتها سنين العمر في وحدتها ولم يتبقَ لها سوى ذكرياتها وأحلامها وابتسامتها، وأخيرًا نامت سيدة وهي تحتضن ظلمة الليل وضوء نور عينيها، ونامت سيدة كنوم العروس ليلة زفافها.

مر أهل الحارة من رجال ونساء كعادة كل صباح ليلقوا بتحياتهم اليومية على سيدة وهي متربعة فوق مصطبة بيتها العتيق، ولكن لم تكن هناك سيدة، ذهبوا إلى أعمالهم ظنًا أن سيدة مازالت هناك تغط في نومها، وصعدت الشمس وانتصف النهار وجرى الأولاد يحومون هناك حول مصطبة سيدة لمشاكسات كل يوم وملاحقات كل صباح وحلوى سيدة التي لا تباع، ولكن لم تكن هناك سيدة. ذهب الأطفال ظنًا أن سيدة مازالت هناك في السوق وحتمًا آتية، واستعدوا بالمقالب والنكات الجديدة حتى تأتي سيدة. ولعب الأطفال وذهبوا هناك عند المصطبة، ولكن لم تكن هناك سيدة.

جرى الأطفال داخل البيت ليخرجوها فقد تأخرت عليهم ولكنهم وجدوا سيدة على حصيرتها نائمة نومة العروس المبتسمة، نامت سيدة نومة أبدية لتكون هناك مرة أخرى السيدة.

استغرب الأولاد وجروا إلى الحارة وصاحوا في الأهل، سيدة مش بترد علينا وبنهزها ومش بترد، في إيه؟ احنا عايزين سيدة،

جـرى الرجـال والنسـاء ليجـدوا سـيدة وقـد فارقـت الحيـاة وتركـت لهـم الـدار والمصطبـة فارغـة إلا مـن ابتسـامتها الواسـعة الصافيـة. سـأل الأولاد: صحـوا سـيدة، عايزيـن سـيدة. رد الرجـال والنسـاء: خـلاص يـا ولاد ماتـت سـيدة، انسـوا بقـى سـيدة. صـاح الأولاد وبكوا سـيدة بـكاءً لـم يعرفـوا مـن أيـن جـاء، بـكاءً حـارًا تسـاقط علـى شـفتي سـيدة المبتسـمة فتحركـت لهـم الشـفاه بلمعـة مـن بسـمة مازالـت حيـة في شـفتيها التـي فارقـت الحيـاة.

بكـى الأطفـال بـكاءً كادت سـيدة أن تصحـو مـن أجلـه، واسـتغرب الرجـال والنسـاء لمـاذا كل هـذا البـكاء؟! واسـتغرب الأطفـال لمـاذا كل هـذا الجمـود مـن الآبـاء؟! ولكـن سـيدة لـم تسـتغرب هـذا التناقـض بـين الكبـار والصغـار حتـى وهـي في موتهـا.

وماتـت سـيدة في عيـون الكبـار ولكنهـا أصبحـت أسـطورة الطفولة البريئـة، وأصبحـت هـي هنـاك السـيدة.

●●●

عضلات الحظ

«الإنسان في الناس ما هو إلا جملة لو اكتملت».

أخذت الشمس مكانها المفضل وسط السماء الصافية لترسل أشعتها الذهبية والفضية على الكون كله شماله وجنوبه وشرقه وغربه، سعد لا يعرف من الكون سوى مسقط رأسه، هذه البلدة التي يسعد أيما سعادة عندما ينهي عمله كل يوم ويعود محملاً بفرحة العودة ليلقي بجسده المتعب على الأرض بين زوجته ووالديه.

وكما توسطت الشمس السماء توسط سعد الأرض وجلبابه حول وسطه ويديه حول فأسه يضرب به الأرض ليقلب بطنها ليغرس فيها بذور الزرع الذي يرى فيه أحلامه ويرى فيه نبتة الشوق إلى الأولاد.

لم يشأ الله لسعد بذرية تمناها طوال العشرين عامًا التي قضاها بين أحضان حنو صفاء التي هي له بمثابة زوجة وأم وأخت والتي لم تشأ أن تتركه حتى بعد أن علمت أنه في حاجة إلى علاج طويل الأمد وباهظ التكاليف ليكون قادرًا على الإنجاب لو نجح العلاج.

كل من يرى سعد يرى السعد في عينيه الذي يعكسه جسده القوي المفتول العضلات وقامته الطويلة بصدره المفتوح لهواء الزرع الذي يبارك البلدة من كل اتجاه، أحب سعد الحياة فأحبته الحياة وأحبه الناس حتى الكلاب الضالة تهز له ذيلها لما تراه قادمًا ليمسح على ظهرها كأنه فارس جواد والكلاب جيد حسان.

تواردت الأخبار عن الحالة السيئة التي وصلت إليها البلدة حديثًا وحالة الشك التي انتابت أهل البلدة فيما بينهم، جمع العمدة الحاج شهاب عيون البلدة وعموم الناس لمناقشة أسباب حالات السرقة والاغتصاب التي انتشرت في البلدة.

تجمع الناس في الدوار وكلهم أمل أن يأخذ العمدة كل التدابير لوقف نزيف التشاؤم والخوف والفزع الذي سيطر على الرجال قبل النساء والأطفال. أقبل شيخ الخفراء ووراؤه صف الخفراء يحملون أسلحتهم الفارغة وكأنهم بهذه الهيئة قادرون على إنهاء مخاوف الناس.

وما إن أحاط الخفراء بالعمدة حتى اطمأن واشتد ظهره ونفخ صدره وبرم شنباته وألقى بعيونه على أهل البلدة الذين افترش معظمهم الأرض وكأنهم في انتظار وحي سماوي ينهي كل مشاكلهم، ارتفع صوت شيخ الخفراء عاليًا قويًا منبهًا الناس أن حضرة

العمدة على وشك إلقاء حديث هام فلينصت الجميع باهتمام، لم يكن الناس في حاجة إلى هذا التقديم من شيخ الخفراء لأنهم في صمت يملؤه الخوف ويحيطه الفزع ولكن هي البروتوكولات التي يهواها حضرة العمدة حين حدوث أي أمر ويدعو لاجتماع طارئ بالناس.

فوجئ الأهالي بكاميرات التلفاز تحيط المكان ووراؤها أناس ينظرون في عدساتها تسبقهم أضواء ساطعة مسلطة على وجه العمدة وأخرى على الناس المفترشين الأرض في سكون، ازدادت الدهشة عندما لاحظوا أن هناك من يمسك بيده مايكروفون ويظهر وجهه بجانب وجه العمدة على شاشة عرض كبيرة لم تضئ ولم يلاحظها الأهالي إلا بعد أن بدأ العمدة حديثه مبتسمًا تارة وصارمًا تارة أخرى.

وما إن رأى الأهالي وجوههم على شاشة العرض حتى علت شفاهم نشوة البسمات والضحكات وبدا كلا منهم يبحث عن نفسه بين الجموع على الشاشة لعله يكون هناك، تعالت همهمات الناس في فرح وشغف عندما يظهر وجه أو ظهر أحدهم على شاسة التلفاز.

انفرجت أسارير وجه حضرة العمدة عندما رأى الناس منشغلين بأنفسهم هكذا ولكنه أوقف كل همهمات النشوة هذه التي سيطرت على رعاياه بإشارة منه لتثبيت الكاميرا على وجهه المنشرح لتتحسر من على أوجه الناس.

تقوقع سعد بين أهل البلدة الذين تعدوا المئات بجلابيبهم الرثة وسواعدهم التي تخاطب الأرض أن تحتضنها من شدة الإرهاق وهم ينظرون إلى العمدة وكأن الخلاص هناك بين يديه حتى ولو كانوا يعلمون أنها فارغة من كل شيء إلا الوعود فهم في حاجة إلى مخدر كلامي بجرعة عالية قد تنسيهم ما هم فيه من فزع قبل فقر.

تعالت الرقاب التي تحاول أن ترتفع لتسمع كلام العمدة وترى ملامح وجهه وهو يخاطبهم وتعالت معها همهمات الحناجر إما استحسانًا أو نفورًا من جمعهم على هذا الشكل ولكن بدت الهمهمات كنقيق الضفادع التي تهرب من سكون الليل لتخاطب غريزة البقاء والألفة.

وفجأة ساد الصمت لما ارتفع صوت العمدة يشق الهواء كأنه سيوف من نار الحكم والألغاز، بدا حضرة العمدة بصوت هادئ تملؤه السكينة في سرد مجهوداته في حل مشكلات البلدة وإيجاد

كل الطـرق ﴿ جلـب المنفعـة للنـاس وكأنـه واعـظ ﴿ مسـجد بعـد صـلاة العشـاء.

وفجـأة وبـلا مقدمـات تحـول صـوت العمـدة إلـى صواريـخ ناريـة تطلـق قذائفهـا يمينًـا وشـمالاً علـى رءوس الأهالـي وكأنهـم هـم أسـباب كل مشـكلات البـلاد وليسـت فقـط هـذه البلـدة، انـزوى النـاس ﴿ جلابيبهـم ﴿ محاولـة هـروب مـن قذائـف العمـدة التـي كادت أن تسـيل دمـاء أحلامهـم علـى الأرض التـي يفترشـونها بجلابيبهـم الرثـة وهـم لا يعلمـون أنـه يطلـق رصاصاتـه تحيـة لابنـه أيمـن القـادم مـع رفاقـه ﴿ الطريـق الآن ليـروا هـذا الحشـد الكبيـر وكيـف تكـون القـوة لأبيـه هنـا ﴿ عقـر داره وكيـف تنحنـي لـه رقـاب أهـل البـلاد.

تعجـب سـعد مـن هـذا التحـول الصوتـي والفكـري للعمـدة ولـم يعجبـه هـذا التحـول ولكنـه لـم يسـتطع التعبيـر عـن غضبـه وهنـا تأكـد لـه أنـه لا حـل ولا أمـل ﴿ حديـث العمـدة كمـا كـان يظـن دائمًـا، فجـأة تذكـر سـعد زوجتـه صفـاء التـي تنتظـره حيـث قـد ألحـت عليـه صبـاح اليـوم ألا يحضـر هـذا الاجتمـاع ويعـود إلـى داره بعيـدًا عـن خداعـات العمـدة التـي لا تنتهـي إلا بمشـاكل لا يحمـد عقباهـا.

ومـا إن تذكـر سـعد ذلـك حتـى لملـم جلبابـه ثـم نهـض حثيثًـا وهـو منحنـي الظهـر ومطأطـئ الـرأس حتـى لا يـراه العمـدة وهـمَّ علـى

ترك الحشد، وما كاد سعد أن ينهض بظهره ليترك مكانه حتى رآه الناس على شاشة العرض بهذه الهيئة وصوت العمدة يصيح عاليًا أمسكوا هذا الجبان، فهو سر كل هذا البلاء ولذلك يريد أن يهرب من الواقع بعد أن وصلته كلماتنا القوية ولكنه ليس ببعيد عن حكمتنا في الوصول إلى كل يد تعبث في البلاد.

توقف قلب سعد وتوقفت قدماه وهو يرى الخفراء قادمين من هناك للإمساك به ليكون شماعة يعلق عليها العمدة أسباب كل الأخطاء، وقبل أن يتوقف قلبه تمامًا استجمع سعد كل طاقته الدفينة في عضلاته التي لم يستخدمها أبدًا ضد إنسان وجرى مهرولاً ناحية الترعة الكبيرة لعله يصلها ويغوص في أعماقها إلى الجانب الأخر ليختفي وسط الحقول التي ملأها الظلام.

جرى سعد وجرى وراؤه خياله على ضوء القمر ولم يدرِ إلا وهو على شاطئ الترعة فوقف ليلتفت وراءه خوفًا من الخفراء ولكنه لم يجد إلا خياله، ونسي أن الخفراء لا يتركون أبدًا مكانًا فيه حضرة العمدة وما حدث إلا مجرد جزء من الفيلم الذي يخرجه العمدة أمام الناس بكل اقتدار.

أخيرًا وصل أيمن وأقرانه الخمسة بسيارته وتوقف بهم على ضفاف الترعة الوحيدة التي تحيط القرية بمائها الراكد معظم

أيـام العـام، أهـذه قريتكـم فعـلاً يـا أيمـن؟! نعـم يـا رفـاق ولكنـي لا آتيهـا إلا كل عـام مـرة أو مرتـين لأحصـل علـى الـزاد والـزواد.

ولكـن لمـاذا تسـمونه قفـر يـا أيمـن فمـع جمـال زرعـه إلا أن حالـه فقـر وليـس قفـرًا، إن الـزرع جمالـه أرق وأجمـل مـن النـاس التـي تجـر البهائـم وكأنهـم أصدقـاء في كل شـيء حتـى المسـكن.

لا تتعجبـوا يـا رفـاق فهكـذا الحـال في كل القـرى والنجـوع، عمومًا إنهـا فرصـة كبيـرة لكـم لكـي تشـاهدوا فيلمًـا كلاسـيكيًا مـن أفـلام الأربعينـات ولكـن علـى أرض الواقـع، الترعـة رائعـة يـا أيمـن والجـو اليـوم حـار ونحـن سـمعنا كثيـرًا عـن الترعـة والسـباحة فيهـا ولكننـا لـم نجربهـا أبـدًا فهيـا بنـا نجـرب السـباحة فيهـا ونلتقـط الصـور لتكـون أحلى الذكريات.

توقـف الرفـاق وأوقفـوا عجـلات السـيارة فـوق الكوبـري الـذي يعلـو الترعـة الكبيـرة وبـدأوا في خلـع ملابسـهم وهـم يتصايحـون مـن شـدة السـعادة في تجربـة هـي الأولـى في حياتهـم وهـم يتناوبـون في أخـذ الصـور التذكاريـة بـكل الأوضـاع في المـاء وخـارج الميـاه وكأنهـم أبطـال يمثلـون فيلمًـا سـينمائيًا مخرجـه أيمـن ابـن حضـرة العمـدة وإنتـاج فدادينـه التـي تتعـدى العشـرين.

ولأنـه بطـل هـذا الفيلـم السـينمائي ومنتجـه اعتلـى أيمـن أعلـى السـيارة الجيـب ورفـع يديـه عاليًـا بجسـد يـكاد يكـون عاريًـا والرفـاق هنـاك علـى الجانـب الأخـر ينظـرون إليـه متظاهريـن أنهـم يشـاهدون مـاردًا عملاقًـا مـع أن جسـده النحيـل قـد يـذوب في ميـاه الترعـة الدافئـة.

قفـز أيمـن في الميـاه مهلـلاً وكأنـه طـرزان في الأدغـال، اهتـزت الميـاه وتشـكلت الأمـواج والرفـاق يصـورون هـذا المشـهد الرائـع الـذي انتقـل مـن صفحـة الميـاه إلـى الأعمـاق.

نظـر الرفـاق إلـى صفحـة المياه ليكونوا جاهزيـن للتهليل المصطنع لحظـة أن تظهـر رأس أيمـن ليباركـوا هـذا المشـهد الفـز ولكـن انتظـروا ولـم تظهـر إلا بقـع مـن المـاء لونـت الميـاه بـدم أحمـر فاقـع لونـه ولـم يـدروا مـا هـم فاعلـين خاصـة أنهـم يعلمـون مـا يعانـي منـه قلـب أيمـن مـن أعـراض تضخـم في عضلاتـه الواهنـة، فـزع أصدقـاء أيمـن فزعًـا يملـؤه الخـوف والرهبـة.

وكأن الفـزع والخـوف انتقـل مـن هنـاك مـن الحشـد الكائـن أمـام حضـرة العمـدة إلـى هنـا في قلـوب الرفـاق، ولـم يجـرؤ أحـد مـن الرفـاق أن يلقـي بنفسـه في الميـاه لإنقـاذ أيمـن، فقـد غلبهـم الخـوف مـن المـوت ومـن منظـر الدمـاء.

ازداد الفزع لما شاهدوا هذا الجسد العملاق يجري بكل قوته ليلقي بنفسه في المياه عندما رأى هذا المشهد من بعيد وأيمن يلقي بجسده النحيل طواعية وبكل جهل إلى قاع الترعة المليء بالصخور والطين والزجاج المكسور فهذا المكان بالتحديد يطلق عليه أهل البلدة سكين الترعة الذي يقطع الأحشاء.

ألقى سعد جسده بحرفية رائعة ولم تمر ثوانٍ حتى خرجت رأس سعد من المياه وبين يديه رأس أيمن المزجاة بالدماء وهو غائب عن وعي الحياة، سبح سعد بأيمن وتناسى كل ما كان منذ قليل حينما تربص به والده العمدة شهاب وكاد أن يقبض عليه ليحمله أخطاء العالم كله.

وصل سعد بأيمن إلى شاطئ الترعة ليستقبله الرفاق فارسًا مغوارًا وعدسات الكاميرات مسلطة على جسده الذي يظهر مجسمًا بقوته من تحت الجلباب الرث الذي التصق بجسده فبدا وكأنه بطل من أبطال هوليود بدون مخرج أو منتج أو عنوان.

هرع الأصدقاء بالسيارة بأيمن وهو بين أيدي سعد ليستقبلهم حضرة العمدة بالطلقات الحية التي أمر بإطلاقها بمجرد أن رأى عربة ابنه قادمة احتفالاً بقدومه وهو بين أصدقائه في هذا الحفل الذي أعد مخصوصًا لمجيئه ولا عزاء لأهالي القرية في حل مشاكلهم.

نـزل الرفـاق ليفاجـأ العمـدة والحضـور بسـعد يحمـل أيمـن بـين ذراعيـه والمـاء مـازال ينسـاب مـن جلبابـه وأيمـن مـازال في غيبوبـة الحيـاة وأضـواء الكاميـرات والتلفـاز مسـلطة علـى عربـة ابنـه ورفاقـه، وقبـل أن ينهـر العمـدة سـعد ويلقـي عليـه لـوم مـا فيـه ابنـه محـاولاً الاعتـداء عليـه كانتقـام مـن التهمـة التـي ألقيـت عليـه منـذ قليـل، أسـرع رفـاق أيمـن بقـص مـا حـدث وكيـف كان سـعد جريئًـا وشـجاعًا وغيـر متـردد لإنقـاذ أيمـن بـكل قـواه.

تـأوه أيمـن ونظـر بعينيـه الواهنتـين إلـى والـده وهمهـم بشـفتيه امتنانًـا بشـجاعة سـعد الفـلاح الـذي أنقـذ حياتـه مـن الهـلاك، ومع أن العمـدة كان قـد نسـي موقـف سـعد ونسـي ملامحـه فمـا كان منـه إلا أنـه تناسـى موقـف هـروب سـعد الـذي كان قـد اصطنعـه ليلقـي عليـه اتهامـات هلاميـة كشـماعة يعلـق عليهـا أسـباب مشـكلات البلـدة.

وسـرعان مـا تناسـى الموقـف حينمـا تذكـر ملامـح سـعد وبـدأ يلقـي الثنـاء عليـه فأصبـح سـعد الآن هـو مصـدر السـعادة والأمـان، وحتـى لا يتناقـض ثنـاؤه مـع موقفـه منـذ قليـل.

فسـر حضـرة العمـدة الحكمـة وراء اتهامـه سـعد منـذ قليـل وهـو يهـم للعـودة إلـى عائلتـه بأنـه قـد قـام مـن الحشـد ليس هـروبًـا كما قال أمـام النـاس بـل كان هـذا فعـل أمـر متفـق عليـه لكـي تخلـو السـاحة لـ

سعد للكشف عن رجال الإجرام بعيداً عن مكان الحشد. وهكذا بدل العمدة الكلام حسب ما يريده هو كالعادة.

ابتسم سعد ابتسامة تنام فيها سخرية أفكاره من العمدة والذي يلون الأحداث لصالحه أيما كانت وكيفما يشاء، مازالت المياه تتساقط من جلباب سعد وهو ينظر إلى عدسات التلفاز ليجيب على أسئلة المذيع الذي وجد اليوم في سعد مادة غنية للحكاوي والقصص والأقاويل.

فما كان من سعد إلا أن أجاب على المذيع بنعم ومازالت سخرية ابتسامته عالقة بشفتيه على ما يجري، نعم هكذا كان الاتفاق مع صاحب الحكمة العمدة وهكذا نفذت الاتفاق ولكني قبل أن أتمكن من إيجاد رجال الإجرام وجدت هؤلاء الشباب يحاولون إنقاذ ابن صاحب العزة أيمن فما كان مني إلا أن انضممت إليهم وهكذا كان الحال.

اصطحب العمدة الجميع إلى منصة الحفل الذي تحول إلى احتفال كبير بخبث حضرة العمدة وسلامة أيمن وشجاعة سعد الذي تحول دون قصد من هارب كاد أن يقبض عليه إلى بطل القرية المغوار وتحولت إليه عدسات المخرج الذي انصاع إلى رأي ابنه الذي كان أحد رفاق أيمن والذي أعجبته شجاعة سعد وقدراته على حب الحياة.

عـاد سـعد إلـى صفـاء وإلـى أمـه وأبيـه وتحـول القلـق بقـدرة القـدر إلـى طريـق للأمـان والشـهرة والعـلاج، ومـازال أهـل القريـة يبحثون عـن أسـباب الجرائـم وعـن أمـل بـين أيـادي صـاحب العصمـة حضـرة العمـدة الـذي يعيـش هنـا وهنـاك وفي كل زمـان وكل مكان.....

●●●

طوبة وأمطار الستر

«وأحيانًا يكون الدعاء حنينًا لأيام الشقاء.“

قبل شروق الشمس خرجت فريدة من بيتها ولم تهتم بقفل الباب فلا يوجد هناك في الداخل ما تقلق عليه من الأيدي العابثة، حملت السلال المعبأة بخضروات اليوم الطازجة التي جمعتها من النصف قيراط التي تفتخر به دومًا أمام نفسها والآخرين أنها من الملاك. توجهت إلى السوق متمنية أن تجد مكانها مازال هناك خاليًا ولم يسطُ عليه أحد من الباعة الآخرين.

بعد نصف ساعة من المشي على أقدامها النصف حافية، وصلت فريدة إلى السوق وكم انشرح صدرها عندما وجدت مكانها مازال هناك ولم يستولِ عليه أحد ببركة وصولها مبكرًا عن الجميع.

حطت سلالها بين قدميها وجلست القرفصاء وسمت الله واستعاذت من الشيطان الرجيم في نفسها وشمرت عن ساعديها غير عابئة بالبرد فاليوم هو العاشر من شهر طوبة القارس البرودة.

تهافـت عليهـا زبائنهـا ليشـتروا منهـا الخضـروات مـع سـيل الدعـوات مـع كل شـراء، ومـا إن بـدأت تنتشـي بالبيـع وتجمـع القـروش القليلـة لتضعهـا ـفي حجـر جلبابهـا حتـى هطلـت فجـأة الأمطـار بغـزارة بريـاح شـديدة أطاحـت بجلبابهـا ومـا بـه مـن نقـود تناثـرت وطـارت مـع الهـواء.

لـم تسـتطع فريـدة الجـري وراء الريـح ولـم يسـتطع أحـد مسـاعدتها فالـكل مشـغول بمـا تبعثـر منـه. لملمـت مـا بقـي مـن خضـروات مبللـة ووضعتهـا ـفي سـلالها المبلـل وحملتـه علـى رأسـها المبللـة ومشـت تصـارع الطـين بنعـل نعلهـا المبلـل والريـاح مازالـت تتلاعـب بـجلبابها المتهالـك المبلـل.

اتجهـت نحـو شـجرة بجـوار سـور بيـت عـال لتحتمي بـه مـن أمطـار طوبـة القارصـة ورياحهـا العاتيـة. جلسـت فريـدة القرفصـاء ومازالـت السـلال المبللـة علـى رأسـها لتحميهـا ومازالـت أفكارهـا ودعواتهـا المبللـة بالطيبـة والسـذاجة الفطريـة ترتفـع ـفي جـوف رأسـها داعيـة اللّه أن تنتهـي الحكومـة مـن تعريـش السـوق ولـو بالقـش والحطـب كمـا وعدتهـم الحكومـة مـن سـنوات.

لـم يسـمع أحـد دعواتهـا ولـن يسـمع فهـم هنـاك مشـغولون بمتابعـة الأرصـاد الجويـة ـفي الغـرف المكيفـة المغلقـة داعـين اللّه أن

تتوقف الأمطار حتى لا تبلل ثيابهم الأنيقة أثناء ركوب سياراتهم الفارهة الرابضة بالخارج.

أخيرًا استجاب اللّه لدعاء فريدة ولدعاء السادة الكبار وتوقفت الأمطار وهدأت الرياح، فرحت فريدة بتوقف المطر وما إن همت واقفة لتلملم نفسها قاصدة ناحية بيتها حتى لطم وجهها وجلبابها المبلل كتل من الطين المتطاير من عجلات السيارات الفارهة التي بدأت تجري على الطريق هاربة من أمطار طوبة.

ابتسمت فريدة وهي تنظر على جلبابها وهي تمسح الطين من على خديها محدثة نفسها: الحمد للّه على نعمة الجلباب الثاني في البيت وإلا كانت مشكلة كبيرة، الحمد للّه على نعمة الستر.

مشت فريدة ناحية بيتها تشق بقدميها كتل الطين العالقة بالأرض ومازالت العربات المسرعة تجري بالناحية الأخرى على الأسفلت.

●●●

صهد الحياة

«آمال الحياة كالحبال المعقدوة قد تقطع قبل أن تفك».

لم يعد مختار قادرًا على المشي أكثر من ذلك فقد أعياه البحث وهو يحمل همومه على كتفيه عن أبويه دون أن يجد لهما أثرًا على الشاطئ المزدحم بالمصطافين الذين أتوا من كل أنحاء البلاد.

رمى مختار بهجته المحملة ببضاعة اليوم والتي عز عليها البيع على رمل الشاطئ ورمى بجانبها جسده النحيل ونام كطفل بأحضان خيال أمه وصوت أبيه الحنون، ومع الأصوات العالية التي تنادي على كل أنواع المبيعات وكأن الشاطئ سوق عكاظ للمصطافين.

غط مختار في نومه بلا حراك وخلد للنوم لعله يصحو ليجد أبويه أمامه وعلى كتفيهما بضاعة يأملون كل يوم في بيعها على الشاطئ ولكن عز على شباب البحر الهائج اليوم أن يتركوهما يطلبون الرزق الحلال، فهاجوا وماجوا عليهما دون سبب سوى

فصال بسخرية المشاعر والمال والشيخوخة ورث الحال فكان ما كان وتاه الأبوين أو راحا إلى غير مكان معلوم عن أعين مختار.

رأى مختار مياه البحر تصب في عينيه ثم تسير في عروقه حتى جعلت منه بحيرة يتوسطها قلبه وتسبح فيها كل الكائنات البحرية التي تسللت مع الماء المالح إلى عينيه.

تعجب كيف يصبح جسده مرتعًا للأسماك وهو لا يستطيع أن يمسك منها سمكة واحدة لا ليأخذها زينة ولكن ليشويها بنار الجوع المتصاعدة من جوفه ويلتهمها بقضمة واحدة لعل الإحساس بالجوع الذي يقتله يستسلم ويذهب، وتعجب مختار كيف أن ماء البحر يملأ دمه من أخمص قدميه حتى منبت رأسه وهو يلهث من العطش ولا يستطيع أن ينال منه ما يسد رمقه.

ومع أن الإحساس بالماء يملأ جسده أعطى مختار شعورًا رائعًا، شعور يشعر ولأول مرة في حياته أنه المحيط الذي يتسع للعالم الأرضي والمائي، شعور جعله ولأول مرة يحتوي الأخر في جسده بعد أن كان دائمًا مصدر إشفاق من الأخرين. إلا أن مختار لم يسعد بهذا الشعور طويلاً لما تسلل مع الماء، المصطافين من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال لمن يلهو منهم في مياه البحر بأجسادهم العارية، شعر مختار بأنه مهبط للأوجاع بعد أن تراكمت في عروقه كل هموم المصطافين الذين ألقوا بأجسادهم في

مياه البحر ليرموا بأحمال همومهم لتذوب فيه فإذا بها تذوب ﴿ الدماء التي تسري بعروقه.

تحمل مختار أوجاع الناس فوق أوجاعه التي مازالت متجمدة ﴿ قلبه وغير قابلة للذوبان ﴿ مياه البحر كما يفعل الناس. تحمل أشواك الأوجاع بكل أنواعها من أوجاع العواطف الأهل والفراق وأوجاع الفقر والغنى وأوجاع غربة النفس وأوجاع الرغبات، تحملها وهو يبتسم كيف لهؤلاء الناس الذين تعلو البسمات شفاهم والضحكات وجوههم أن يحملوا كل هذه الأوجاع.

تحمل مختار الأوجاع وتمنى ألا تنحسر مياه البحر عن الصب ﴿ عينيه ومنها إلى جسده حتى يبقى المصطافين يتوافدون ويلهون ﴿ عروقه ويسبحون ﴿ دمه ليبحث بينهم عن أبويه.

ازدادت أوجاع مختار لما وجد الكل يجري ﴿ عروقه ما عدا أبويه وتساقطت دمعات على خديه ولم يخفف من آلامه إلا لهو الأطفال من ﴿ مثل عمره الصغير، وزادت آلامه حدة عندما وجد نفسه غير قادر على الانضمام إليهم واللهو معهم ﴿ حواري وعلى نواصي عروقه فقد وجد نفسه يرى ويشعر بهم عن بعد ولا يستطيع أن يلمسهم فهو فقط شاهد على اللهو وحامل للهموم والأحزان التي ذابت ﴿ دمائه الساخنة.

لم يفقد مختار الأمل في البحث عن أبويه، فقرر أن يرج جسده ويصرخ بأعلى صوته لعلهم هناك في مكان ما مغلق ومحصن وعليه حراس، كانت هزة جسد مختار قوية كالزلزال وصرخته مدوية كالرعد انتفض لها محيط المياه بجسده فهاجت الأمواج ببحره وهرع المصطافين بدماء عروقه إلى الشاطئ وتزاحموا وتكوم الجميع فرادى خوفًا وهربًا من الغرق.

وسط الزحام فوجئ مختار بأبويه بعيدًا متقوقعين هناك بين أسوار من الأجساد الوحشية التي ولت مدبرة في التو عنهم وتركتهم وجرت تبحث عن مكان بعيد آمن عن أمواج مياه البحر العالية في عروق وهزات جسد مختار المزلزلة.

انشرح حال مختار لما رأى والديه والبسمة على الشفاه. لما تعرفا على صرخات صوته جرى والديه مسرعين يختبآن في قلبه الغض الذي تحول في دقائق إلى صقر، زادت صرخات مختار المدوية واهتزازات جسده المزلزلة القوية وأبويه ينظران إليه بحب وإعجاب وأمان وهما متعلقان بستائر جدران قلبه والناس حولهم يبحثون عن مأمن من الموج الهائج ويتزاحمون على أبواب عروقه ليخرجوا إلى الشاطئ.

حينما اطمأن مختار على أبويه قرر أن يقطع شرايين يديه لتسيل دماؤه ليتخلص من الهموم التي ذابت في دمه ويخرج الناس من خوفهم إلى بر الشاطئ ويبقي والديه في قلبه بعيدًا عن هموم الناس فكفى همومهم.

فزع مختار على صراخ جمع من الناس المتحفزين حوله وبمن يضرب صدره بشدة بيد شمسية وكأنها سيف قاتل يبحث عن قتيل، صوت صارخ فيه ناهر أن يصحو من نومه ويذهب ليجد مكانًا بعيدًا يرمي فيه بجسده بعيدًا عن المصطافين فقد غضب الكل من صراخ نومه.

نهض مختار يبحث حواليه عن والديه وعن بهجته ولكنه لم يجد حواليه سوى صراخ أجساد كلها عداء كانت في التو تسبح في دمه ولم يجد بقلبه سوى صدى فراغ من نداء على أبويه ولم يجد بجانبه متاع بهجته.

نظر إلى السماء متعلقًا بحبالها التي لا يراها وجر رجليه كأنه تحت مخدر بقايا أوجاع الناس الذي سكن بداخله ومشى بجسده النحيل ذي العشر سنوات العجاف يبحث عن حظه تحت أقدام المصطافين التي محت آثار أقدام أبويه وآثار حظه.

●●●

نيران العواطف

«أحيانًا تكون النهايات انقلابًا على البدايات، وأحيانًا تكون عنوانًا لبداية بلا نهاية».

لم تعد الأسرة تتقابل كثيرًا بسبب ظروف الحياة، فدعوت كل الأهل إلى لقاء عائلي كما كان الوالد يفعل كل أسبوع، ورحب الجميع بالفكرة كبارًا وصغارًا دون أن يشك أحد في تفسيري لسبب اللقاء بأنه لغرض التجمع والقرب العائلي الذي خاصمنا منذ سنين، شد الجميع الرحال من مدن ودول مختلفة وكأن الجميع مشتاق إلى جمعه لنا، مشتاق إلى أهله، مشتاق إلى جذوره، مشتاق إلى حنان وحب صادق.

وكانت مفاجأة كبيرة للأم التي كاد أن يغمى عليها من هول المفاجأة فاغرورقت عيناها بالدمعات ثم فاضت بالبكاء وهي ترى الأبناء والأحفاد حواليها فمنهم من لم تره من قبل ومنهم من لم تره منذ سنين.

ولم تتساءل الأم عن السبب بل أخذت تروح وتجيء بين الجميع وكأنها تتفقد أطفالاً في أول يوم من أيام المدرسة توزع

ابتساماتها وحنانها ولمساتها على الأكتاف والصدور والرءوس وهي تتوكأ على عصاها التي أكلها ثرى الأرض في بيتها، بيت العائلة الذي ترعرع الأبناء فيه، وتركها وحيدة بين جدرانه إلا من ذكريات الزوج الطيب والأب الحنون الذي رحل قبلها وعن زيارات بعض أهل الشارع بين الحين والأخر.

الآن الأم هي الموطن فقد جاءها وفاجأها الأبناء بهذا العرس الكبير عرس الحب وبر الوالدين والحنين إلى الوطن الأم مهما تعددت الأوطان.

أمسكت بيد أمي أهون عليها مشيتها فأخذتني إلى المطبخ والسعادة تملأ عينيها وقلبها وكل خلية في جسدها وهي تناديني أن أخرج كل شيء عندها لعمل أكبر غذاء لفلذة الأكباد. ابتسمت وقبلت يدها وقلت أحضر كل منا طبقًا للأخر يا أمي فلا تقلقي على الغذاء فنحن هنا لنغوص في حنانك ونحيا على دعائك الذي نحتاجه بشدة وصدرك الذي افتقدناه منذ سنون، ارتاحي يا أمي فاليوم عيد ميلادك، نظرت أمي إلى عيني ولم تعلق إلا بلمعة مقلتيها، لمعة أضاءت قلوبنا جميعًا وكأنه السحر الذي آلان القلوب وأراح العقول.

خرجت أنا وأمي من المطبخ أتأبط ذراعها كعروسين والابتسامة تملأ وجهها وأجلستها على الكرسي الذي حرصت دائمًا أن تكون عليه أمامنا كل يوم طوال إقامتنا معها بعد أن تعد الإفطار والغداء والعشاء. جلست أمي وجلسنا على بقية الكراسي كما كنا صغارًا ووقف وراءنا الأطفال وكأنهم يشاهدون فيلمًا سينمائيًا كلاسيكيًا ولكن بنشوة عارمة.

غنينا احتفالاً بعيد ميلادها وعيد الأم ورحنا نقبل وجنتيها ورأسها ويديها كأطفال نبحث عن رضاها وعن مصروف الجيب منها، هرول الأطفال حولنا وفعلوا مثلما فعلنا مع أمنا بل وأحبوا أن يلقوا بنفس القبلات علينا فانتشينا جميعًا. جلست الأم على كرسي الملكة ويد تتوكأ على عصاها ويد تمسح الدمعات من على خديها. وأقبلنا على الغذاء وكان ألذ وأشهى ما طعمناه، وعزفنا بالمعالق والسكاكين والشوك صعودًا وهبوطًا أصواتًا كأجمل سيمفونية عزفها فنان.

امتلأ البيت صخبًا وفرحًا وجرى الأولاد هنا وهناك يكتشفون كل مكان وكل شيء في البيت وكأنه كنز وقع عليهم من السماء، فوجدوا لعبنا القديمة مازالت هناك في غرفنا ووجدوا صورنا على الحائط في كل مكان.

جـرى الأطفـال ونحـن وراؤهـم أطفـال في جنبـات البيـت والأم تنـادي علينـا أن نحتـرس مـن السـلم ومـن الشـباك ومـن الزجـاج وكأن الزمـن عـاد بنـا إلـى الأيـام الخوالـي الدافئـة فأصبحنـا أطفـالاً مـن عمـر أطفالنـا.

سـمعت ضربـات سـريعة وشـديدة علـى بـاب البيـت فجريـت مهـرولاً لأرى مـا الخطـب الـذي يريـد أن يعكـر صفـاء هـذا الفـرح العائلـي، فـكان النـداء بالغـوث مـن أحـد الجيـران الـذي لـم أعرفـه ولكنـه أصـر أننـا جيـران، الغـوث في إطفـاء حريـق شـب ببيتـه فهرولنـا جميعًـا وتركنـا الأطفـال مـع الأم في أمـان حتـى نعـود، وكانـت ملحمـة شـاركنا فيهـا مـع الآخريـن في إطفـاء حريـق لـم تـدعَ لـه عربـات الإطفـاء.

ومـا كدنـا أن ننهـي مهمتنـا بنجـاح وإخـلاص مـع الآخريـن مـن أهـل الشـارع الطيبـين، إلا وسـمعنا صراخًـا وعويـلاً فهـرول الجميـع كل ناحيـة بيتـه ليعـرف مـا الخطـب؟!

هرولـت أنـا وإخوتـي ناحيـة البيـت لنطمئـن علـى الأم والأولاد، فقابلتنـا ألسـنة اللهـب تتصاعـد مـن جميـع نواحـي البيـت كجبـال مـن نـار فصرخـت قلوبنـا وخرصـت ألسـنتنا وذهلـت عقولنـا وجرينـا والجنـون فينـا وغزونـا أشـلاء البيـت نبحـث عـن ركـام الأحبـاب فقـد كان الانفجـار مدويًـا فأحـرق بيتنـا وبيـوت الجيـران.

لم نجد إلا نيرانًا تأكل الخراب وتأكل أجسادنا وما تبقى من أنفاسنا فأخرجونا من البيوت نبكي كالأطفال على الأم والأمهات والأطفال..... وقالوا إنه الإرهاب ولكننا لم نسمع ما قالوا فقد شل فينا السمع والبصر والإحساس.

«وهكذا تكون النهايات أحيانا إنقلابا علي البدايات ، وأحيانا تكون عنوانا لبداية بلا نهاية».

●●●

موبايلات المشاعر

«الحرمان هو عود ثقاب الإبداع... وتحدي الحرمان هو شرارة الإبداع».

عاد غريب من العمل مفعمًا بالمشاعر وكأنه ولد اليوم من جديد فلديه شعور بحب الحياة والناس وكل شيء حوله حتى القمامة المكومة أمام بيته كبقايا الحروب العالمية التي كان يلقي عيها أكوامًا من السباب واللعنات ينظر إليها اليوم مبتسمًا.

سيطرت هذه الحالة من الحب على غريب فجعلته يسرع الخطى إلى البيت ليحكي لوالده عن مدى تمسكه للبقاء في هذا العمل وكم كان هو مخطئًا عندما كان يلعنه كل يوم ولا يريد أن تطأ قدميه باب الشركة مع أنها في أرقى أحياء العاصمة.

مضى على تخرج غريب أكثر من خمسة أعوام وهو يتنقل من عمل إلى أخر مع بقائه في البيت بدون عمل لوقت أطول بكثير بين إنهاء عمله والبحث عن عمل جديد حتى فقد كل أمل في إيجاد أي عمل، اليوم اتصل بي صديق قديم يا غريب لم أره منذ سنوات وطلب مني أن تذهب إليه لعمل مقابلة في شركة الاتصالات التي يديرها بوسط البلد.

خبـر جميـل يـا والـدي ولكـن لمـاذا أنـا؟ ولمـاذا الآن خاصـة؟ أنـا أعلـم أن هـذه الشـركات تدفـع كثيـرًا للعاملـبن بهـا، لا أدري يـا ولـدي فأنـا ـ في حالـة اندهـاش مثلـك ولكـن مـن يعلـم لعـل الله اسـتجاب لدعائـي لـك الـذي لا ينقطـع ثـم إنهـا كمـا قـال لـي صديقـي القـديم شـركة جديـدة تمامًـا ومختلفـة ـ في طريقـة العمـل والمنتجـات عـن كل الشـركات الموجـودة ـ في القطـر.

ارتـدى غريـب بذلتـه الأنيقـة وتزيـن وكأنـه ذاهـب إلـى عـروس يخطبهـا وـ في يديـه حقيبـة صغيـرة بهـا السـيرة الذاتيـة والأوراق المعضـدة لهـا وهـمَّ بالذهـاب للمقابلـة لعلـه ينجـح ـ في الحصـول علـى هـذه الوظيفـة خاصـة أن طموحـه هـو العمـل ـ في تكنولوجيـا الاتصـالات فهـو خريـج هندسـة الاتصـالات وفـوق ذلـك لديـه شـغف وقـدرة عاليـة ـ في التعامـل مـع أي قطعـة تنتمـي إلـى الاتصـالات ورغبـة شـديدة ـ في فـك رمـوز الاتصـالات.

ركـب غريـب التاكسـي وهـو ينظـر إلـى المحـلات والفاترينـات يمينًـا وشـمالاً وكأنـه يخاطبهـا ـ في نفسـه غـدًا سـوف نكـون أصحابًـا.

أهـلاً غريـب ومرحبًـا بـك ـ في شـركة المسـتقبل للاتصـالات، لـم أسـمع عـن الشـركة مـن قبـل يـا سـيدي ولكنـي كلـي شـغف بـأن أعـرف منـك طريقـة العمـل وأنـواع المنتجـات بهـا والـدور الـذي ينتظرنـي ـ في فريـق العمـل.

بداية رائعة للقاء يا غريب ولكن حدثني عن خبراتك السابقة المتعلقة بالاتصالات، خبرتي يا سيدي لا تتعدى فن الاتصال بالناس في أعمالي السابقة فقد كانت جميعًا ليس لها علاقة بتكنولوجيا الاتصالات إلا من الاتصال اليومي بالناس الذين لا مفر لي من التعامل معهم تحت وطأة تقلبات أمزجتهم كل يوم ولكن لي هوايتي التي أعشق فيها فك وتركيب قطع الموبايلات والراديو والتلفاز لمعرفة كيفية عملها وكأني أبحث فيها عن قطع مستقبلي الضائع.

ابتسم مدير الشركة ونهض واقفًا ليسلم على غريب صائحًا وأنت الآن قد استلمت العمل في شركة المستقبل للاتصالات، مبروك واذهب لإمضاء العقد وسوف يخبرونك عن طبيعة عملك هناك، كبت غريب فرحته في قلبه وهو لا يصدق أن الواسطة تنجز الأمور بهذه السرعة والشياكة.

مضى غريب على استلامه للعمل أكثر من ثلاثة أشهر ولكنه أحس بالملل والضجر فلا هناك أي عمل يقوم به سوى ترتيب الملفات على الأرفف وملء استمارات العملاء، العمل الذي ليس له أي علاقة بتخصصه فقد تخيل أن مدير الشركة عينه لكي يستفيد من طموحه عندما أخبره عن هواياته.

لـم يسـتطع غريـب أن يخفـي حالـة الضجـر هـذه ﮔ اتصالاتـه مـع زملائـه ومـع العمـلاء ومـع زميلتـه فرحـة ﮔ العمـل التـي دائمـة الضحـك والهـزار والتـي دائمًـا مـا تظهـر لـه الـود والإعجـاب كلمـا تحينـت الفرصـة لذلـك، ولكـن يحتفـظ غريـب دائمًـا بلياقتـه ﮔ التعامل امتثالاً بنصيحة والـده لـه ﮔ كل مـرة يشـتكي لـه عـن حالـه ﮔ الشـركة.

المدير يريد أن يـراك يـا غريب بعد الغذاء فكن جاهـزًا بلياقتك حتـى لا يشـعر بحالـة الضجـر والملل التـي أصبحـت جـزءًا مـن وجهك هـذا، لا تقلقـي يـا فرحـة ولكنـي أخشـى أن أحـدًا مـا قـد قـرأ شـعوري ونقلـه إليـه ولهـذا طلـب لقائـي.

أهـلاً يـا غريـب لـم أرك إلا مـرة واحـدة منـذ تعيينـك ولكـن أتابـع أخبـارك التـي لا تسـرني ولا تسـرك، ألا يعجبـك العمـل ﮔ الشـركة بعـد، أنـا يـا سـيدي أشـعر أنـي أعمـل لأنـي يجـب أن أعمـل ليـس لأنـي أحـب مـا أعمـل، وأشـعر أنـي أقـوم بأعمـال الأرشـيف وأشـعر أنـه تم تعيينـي لأهـان وليـس لأعمـل وأنطلـق، وأشـعر....

كفـى كفـى يـا غريـب واضـح أنـك فعـلاً قـد وصلـت إلـى حالـة ميئـوس منهـا، هـذا فيديـو سـتجد فيـه طريقـة العمـل بالتفصيـل ﮔ قطـاع تكنولوجيـا الإلكترونيـات بالشـركة، بعـد أن تشـاهده سـوف

تبدأ لتعمل فيه على تطوير مشروع مهم في هذا القطاع، وما هو هذا المشروع يا سيدي.

إنه مشروع العصر الذي سوف يحدث نقلة في نوعية الاتصال بالعالم ولكن عن بعد، ولكن هذا موجود بالفعل يا سيدي كما يحدث في الاتصالات اليومية من الموبايلات عبر القارات.

نعم يا غريب ولكن أنا أتحدث عن اتصالات المشاعر والإحساس بها، وكيف يكون ذلك يا سيدي؟! ابتسم غريب مازحًا أهذا المشروع سبب رجوعك لمصر بعد عشر سنوات هجرة في بلاد الغرب فجعلتك الغربة تفكر في انتقال المشاعر عبر الأسلاك؟!

ما عليك الآن من كيف ولماذا ولكن عليك بأن تشاهد الفيديو ثم تقوم بتوليف شفرات كودية كأرقام التليفونات وذلك باستخدام برنامج يصل الموبايل الذي تظهر عليه الأرقام بشاشة الكمبيوتر التي يظهر عليه وجه تعلوه إما ابتسامة أو تكشيرة.

وما عليك إلا أن تقوم بتسجيل الكود الرقمي الذي يظهر عنده أي جزء من الابتسامة أو التكشيرة حتى تصل إلى الكود أو الأكواد التي تجعل الوجه الافتراضي كله إما مبتسمًا كاملاً أو غاضبًا، إني معجب بالفكرة يا سيدي وإن كانت تبدو لي كأفلام الخيال العلمي.

إنها فعلاً كذلك ولا نعلم إذا كنا نستطيع الوصول إلى ذلك أم لا ولكن ها هي فرصتك لتثبت لنا مقدرتك وهوايتك في فك الأكواد التي أخبرتني بها في أول لقاء والتي كتبتها أنت في أحد الملفات التي أرسلتها طلبًا للتعيين وكانت لإحدى عملائنا.

الآن فهمت لماذا تم تعييني يا سيدي وأنا كلي سعادة في توظيف كل إمكاناتي وهواياتي ليس في فك الأكواد ولكن في تركيبها لنصنع وجهًا مبتسمًا أو عابسًا. حسنًا يا غريب ولهذا اخترتك من ضمن الآلاف بالإضافة إلى أنك ابن لصديق عزيز.

ولكن ما الغرض من وراء صناعة هذا الوجه يا سيدي، أهي لعبة جديدة للأطفال أم اختبار جديد لحساسية الموبايلات؟! ما عليك الآن من السبب وراء ذلك يا غريب فلا تجعل أسئلتك غريبة مثل اسمك، سوف تعلم كل شيء في حينه، وما عليك الآن إلا أن تنكب على عملك الجديد ولك من الصلاحيات ما تشاء ولكن بشرط أن يبقى كل شيء طي السر والكتمان، وليكن سيدي فلا تقلق وأنا لها.

الغرفة محكمة وتحتاج إلى رقم سري لدخولها والذي لا يمتلكه إلا المدير ونائبه ومسئول قطاع تكنولوجيا الاتصال بالإضافة إلى غريب، أصبح عمل غريب اليومي ينحصر في إدخال كود بعد كود

على الموبايل ثم ملاحظة الوجه الذي يظهر جزء صغير منه أو بالكامل مع ابتسامة أو عبوس أو لا يظهر تمامًا حسب رقم الكود.

وبعد محاولات شتى لثلاثة أشهر كاملة توصل غريب إلى الأكواد التي تصل إلى مستويات محددة إلى الابتسام أو العبوس في الوجه الكرتوني على شاشة الكمبيوتر، عندما علم بذلك مدير الشركة طار فرحًا وطلب من غريب تقرير تفصيلي عن الموضوع.

فكر غريب جيدًا في الأسباب التي تجعل المدير فرحًا هكذا فتملكته رغبة عارمة في فك الموبايل والشاشة وبعد محاولات في الفك والتركيب كهواية قديمة له توصل غريب إلى مزيد من الأسرار التقنية التي مكنته من الوصول إلى أكواد جديدة تجعل الوجه يقهقه أو يبكي وبحرارة بعد أن اكتشف أن الأسلاك الموصلة للوجه تشبه تمامًا تركيب المخ البشري.

انبهر غريب بتلك الفكرة ولكنه أخفى معرفته بها عن المدير واستمر في هوايته فنزع الأسلاك ووضعها على رأسه مع تفعيل الأكواد فوجد نفسه يصيح مقهقهًا أو باكيًا كما لو أنه الوجه الإلكتروني.

هنا اكتشف غريب سر الفرحة العارمة للمدير، استمر غريب في المزيد من التجارب في الغرفة التي أصبحت تشبه

معمل الإلكترونيات حتى توصل إلى صنع موبايل أخر بديلاً عن الشاشة شريحة بدوائر إلكترونية تنقل الأكواد إلى المخ كذبذبات تثير الضحك أو البكاء.

قرر غريب أن يكون جمعية للتعساء وهالته الأعداد الغفيرة التي انضمت إلى الجمعية في بضعة أيام، صنع غريب آلاف الشرائح وأهداها إلى كل أعضاء الجمعية قبل أن يصاب الشعب بالكامل بالاكتئاب من جراء الأكواد الأخرى التي قد تصل إلى يد السيد المدير.

وهنا تعلم غريب كيف أن الواسطة قد تكون غلافًا لمشروع كبير لتدمير بهجة الأوطان ليعم الاكتئاب وتنتشر فوضى أدوية السعادة الزائفة.

وهكذا أدرك غريب سر اسم فرحة زميلته في الشركة وتعلم كيف تتولد مشاعر الموبايلات!!

●●●

ملف قيصر

«وتبقى النفس صامدة أمام صهد الحياة».

أهـلاً بيـك يـا فضـل، إيـه الغيبـة الطويلـة دي؟ يـا تـرى كنـت فـين؟ أبـدًا، شـعرت بلوعـة ومـرارة وحالـة اكتئـاب فقـررت أن أسـتريح في أجـازة مـن العمـل وبعيـدًا عـن الديـار. طيـب، حمـدًا لله على السـلامة، ويـارب تكـون أحسـن، فقـد افتقدنـاك كثيـرًا. وإيـه اللـي هاتفتقـدوه فيَّ يـا عزيـز؟ أعتقـد وجـودي زي عـدم وجـودي، إيـه يعنـي شـوية ملفـات قديمـة بقرؤهـا كل يـوم وألخصهـا وأحللهـا ولا مـن شـاف ولا مـن دِري.

إزاي بـس يـا فضـل، ليـه تقـول كده، كلنـا هنـا بقينـا أسـرة واحـدة والشـغل بالنسـبة لنـا أصبـح عـادة ولقـاء واطمئنـان بغض النظر بنحبه ولا كارهينـه. أعقـب عزيـز قائـلاً: وبعديـن أنـت ناسـي إن فيـه عـلاوة جديـدة يـا حبيبـي أول الشـهر اللـي جـاي، ونسـيت إن فيـه ترشـيحات للمكتـب الثقـافي بموريتانيـا، وإن احتمـال أسـمائنا تبقـى مرشـحة.

يـا سـيدي مـش ناسـي كل ده، وفاكـر كويـس قـوي إنـه بيحصـل كل مـرة وفاكـر كمـان إن العـلاوة بتكـون ذكـرى بعـد شـهر وكأنـك يـا أبـو زيـد مـا غزيـت، وطبعًـا أسـماؤنا بتـروح في الترشـيحات صـورة والملك اللـي بيفـوز حـد غيرنـا.

يـا أخـي أنـت ضـارب أمـورك هـم كـده ليـه النهـاردة، هـو أنـا ناقص، مـا أنـا كمـان الغلب راكبنـي لراسـي، وبعديـن هـو اللـي ياخـد أجـازة مـن الملل يرجـع راكبـه الهـم والملل، أمـال رحـت ليـه. يـا صديقـي أنـا الملل ماكنـش سـابني ولكـن كنـت بحـاول أهـرب منـه يمكـن يسـيبني ولكن ماسـبنيش وركـب معايـا المواصـلات واتفسـح معايا وشـاف معايا اللـي مـا شـوفتوش وبرضـه رجـع معايـا كأنـه كان ملازمنـي علشـان يطمـن إنـي مـش هاسـيبه ولا هانسـاه.

ضحـك عزيـز ضحكتـه العاليـة عندمـا يكـون مزاجـه عـال ورايـق، طيـب يـا سـيدي، أهـلاً بيـك وأهـلاً بالملـل بتاعـك، يـالاَّ علـى الشـغل علشـان مطلـوب مننـا قـراءة وتلخيـص وتحليل بعض الملفـات التاريخية المهملـة ولكنها عتيقـة وتعتبـر ثـروة قوميـة وتاريخيـة.

يـالاَّ يـا صديقـي العزيـز عزيـز، وأنـا جاهـز فقـد اشـتاق الملـل إلـى وظيفتـه اليوميـة التـي لـم يهتـم أحـد مـن المسـئولين علـي الإطـلاق ولـو مـرة واحـدة بتحليـل واحـد ممـا نقيمـه ليسـتفيد منـه أو علـى الأقـل لعمـل موضـوع إعلامـي نظهـر فيـه تاريخنـا أو حتـى كتابـة مؤلـف بهـذه الملخصـات خاصـة التـي أحللهـا بعـد ترجمتهـا مـن الرومانيـة إلـى العربيـة والإنجليزيـة.

أعلم يا عزيزي ولكن دعنا نفعل الروتين اليومي بسعادة، هو حد قال لك ادخل كلية اللغات واتخصص لغات قديمة، أنت اللي عملت في نفسك كده.

خلاص يا سيدي خلاص، ماتفكرنيش، عمومًا يالاَّ بينا ونتكلم بعدين علشان أحكي لك أنا عملت إيه في أجازتي.

جلس فضل عل مكتبه الصاج الذي استلمه عهدة منذ عشرة أعوام عندما جاءه خطاب استلام العمل في وزارة الثقافة وتذكر كم كان متحمسًا لوظيفته التي انتظرها خمسة أعوام لتمثل له حبل الإنقاذ من صحراء البطالة التي تاه فيها بعد أن تنقل من عمل إلى آخر، أعمال ليس لها أي علاقة بتخصصه في دراسة اللغات القديمة، التخصص الذي اختاره طواعية وبحب وبحماس ليكون متفردًا خاصة أن عدد الطلاب فيه لا يزيد عن أصابع اليدين.

تذكر فضل كيف بهت حماسه بعد فترة عندما وجد نفسه بين ركام ومخلفات الملفات القديمة ومعظمها بالعربية لينحصر عمله في تحليلها وتلخيصها ورفعها إلى المسئول لعمل اللازم، التأشيرة التي حفظها عن ظهر قلب وكرهها من جوه القلب، ابتسم في نفسه عندما تذكر أنه لم تأتِ إليه الفرصة ليترجم ملفًا واحدًا

مـن الملفـات القديمـة المكتوبـة باللغـة الرومانيـة مـع أنهـا تقبـع هنـاك في المكتبـة الرئيسـة ومـع أنـه تخصصـه الدقيـق ولا يوجـد غيـره هنـا لهـذا العمـل، ولكنهـا رؤيـة المسئولين التـي لا يسـتطيع التدخـل فيهـا.

جلس علـى المكتـب والـذي لا يوجـد بـه إلا درج واحـد كبيـر ودرج صغيـر للأقـلام وعليـه عشـرة ملفـات قديمـة المطلـوب العمـل عليهـا بالروتـين اليومـي كمـا تعـود، وضـع فضـل رأسـه علـى كومـة الملفـات لا يريـد أن يفعـل شـيئًا بهـا، وفكـر أن يكتـب مـن بنـات أفـكاره بغـض النظـر عـن محتـوى الملف ليمـلأ المسـاحة المطلوبـة في التقريـر المرفق مـع كل ملـف حتـى ينتهـي سـريعًا ولا يصـاب بالملـل ككل يـوم ولعلـه بذلـك يكسـر سلسـلة الملـل التـي تقيـد أركان أفـكاره.

مالـك يـا فضـل، أنـت نمـت علـى الملفـات ولا إيـه؟ اشـتغل يـا حبيبـي علشـان نخلـص الشـغل ونمشـي، أنـا عازمـك النهـاردة علـى الغـدا وعلـى حسـابي.

أفـاق فضـل ورفـع رأسـه ناظـرًا إلـى عزيـز، يـا صديقـي أنـت هـاتعملها جميلـة علـيَّ، دي مـرة هـاتعزمنـي أنـت قـدام كام مـرة أنـا عزمتـك فيهـا.

يـا سـيدي هـي أي عزومـة، أنـا عزومتـي حاجـة تانيـة إنمـا أنـت عزومتـك أورديحـي.

ضحكا من القلب وبدأ كل منهما العمل كما هو متبع يوميًا.

انكب فضل على الملفات يزيح عنها التراب المعلق عليها ويصنفها للعربية أو الإنجليزية كالمعتاد ثم يرقمها قبل أن يبدأ في القراءة والتحليل، وهو يقلب في الملفات سريعًا، فوجئ ولأول مرة بملف مكتوب عليه، ملف نادر من المخطوطات الرومانية، لم يصدق نفسه، ففي خلال عشر سنوات لم تقع عينه على ملف باللغة الرومانية، لغة تخصصه، التي مازال يقرؤها في كتب الجامعة التي احتفظ بها حتى لا ينساها.

نظر إلى الملف بإعجاب شديد وكأنه لا يدري من أين وكيف يقرؤه؟! وأثار فضوله أن يعرف محتوى هذا الملف النادر ولماذا تصادف وجوده على مكتبه عند أول يوم للعمل بعد الأجازة. أهي صدفة أم هو مقصود؟ حتى ولو صدفة، فما أروع الصدف وأجملها عندما تلبي رغبة كبرى وعتيقة داخل أغوار نفسك المشتاقة إلى شيء يبهرها ويغزيها ويرويها ويبعد عنها شبح الملل.

ابتسم فضل في نفسه وتذكر دعاء والدته بأن ربنا يوقع له ملف يحبه، وضحك عندما تذكر دعابة خطيبته التي يعشقها وهي تقول له: ولا يهمك يا حبيبي أن هلبس لبس روماني وهعمل نفسي ملف روماني وهلفني وابعتني للشغل عندك علشان أكون الملف القديم اللي نفسك فيه.

آه منك يا محبوبتي التي مازلت على العهد تنتظر الفرج معي أن يهبط من السماء لكي نتزوج، خمس سنوات طوال مروا على خطوبتنا وأنا مازلت أحلم وأتمنى وأشتاق، وأنتِ ما زلتِ على الوعد وعلى حبك، تقاومي ضغوط أهلك، آه يا محبوبتي لكم أتمنى أن أقدم لكِ العالم القديم والجديد والمقبل هدية لك وحدك لو أستطيع، آه لو تعرفي مدى حبي وعشقي إليكِ، عشق يفوق عشق كليوباترا لقيصر، وروميو لجولييت، عشق يفوق حب العالم بأسبابه، ولكني أعلم أنكِ تعلمين هنا في قلبي إلى يوم الدين.

إيه مالك تاني يا فضل، سرحت في إيه؟ مش قلنا نشتغل علشان الغدا، هي أجازة واحدة تعمل فيك كل ده؟! يا ابني استهدَ بالله وانسَ الملل، وركز في شغلك حتى ولو كان روتينًا وأكيد ربنا هيفرجها طالما بتعمل اللي عليك، وأنا عهدي بيك إنك بتعمل أكثر من اللي عليك وبإخلاص، فتأكد من كرم الله ولو بعد حين، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنت تتقن عملك حتى ولو لم يقدره رؤساءك فثق في قدرة الله وأنا واثق من ذلك ومن ظهور إبداعاتك للناس يومًا ما. ألا يكفي أنني أقرأ بشغف ما تكتبه بل أحفظه لدي في البيت لقراءته من وقت لأخر، فقط لأستمتع بإبداعاتك في الوصف والتحليل المنطقي ببلاغة أدبية

راقيـة تجـذب عقـل الغيـر متخصـص قبـل المتخصـص، سـمّ بـالله وابـدأ الشـغل وبكـرة هفكـرك بكـرم ربنـا.

ابتسـم فضـل لعزيـز وأومـأ برأسـه بالإيجـاب، حاضـر يـا سـيدي حاضـر، أنـا بـس متفاجـئ بملـف رومانـي لقيتـه بـين الملفـات، ودي أول مـرة تحصـل مـن يـوم مـا اتعينـت فهـل حـد جابهولـي عـن عمـد لأهميتـه؟!

أبدًا يـا سـيدي، أنـا اللـي بدلـت ملفاتـي بملفاتـك لمـا لقيـت الملـف الرومانـي ده لأنـي مـش هعـرف أترجمـه لأنـه واضـح إنـه جـه هنـا غلـط، فرصـة يـا عـم وجاتلـك تشـبع رغبتـك، يـالاً بقـى اشـتغل، يـا سـاتر، كده هسـحب مشـروع الغـدا.

خلاص يا عم خلاص هشتغل أهه.

نظـر فضـل إلـى الملـف بعمـق وكأنـه كنـز عثـر عليـه مـن بعـد فقـر مدقـع وأخـذ يقلبـه ويعـد أوراقـه علـى مهـل مـرة مـن اليمـين وأخـرى من الشـمال وكأنه يتعامـل مـع أسـرار حربيـة عتيقـة ويخشـى أن يصيبهـا بـأذى، تذكـر فضـل أيـام الدراسـة وكيـف كان يسـتمتع بدراسـة الأدب الرومانـي والتاريـخ الرومانـي وخاصـة الحقبـة التـي تواجـد فيهـا الرومـان في مصـر بقـوة واعتلـوا وتحكمـوا في مقاليـد الحكم حتـى أصبحـت لهـم اليـد العليـا في حكم البـلاد، تذكـر كيـف أن

أستاذ التاريخ الروماني كان يصول ويجول أثناء محاضرته وكأنه القيصر وهو يستعرض تاريخ روما آنذاك لدرجة أن فضل ضحك مرة والأستاذ يسأل الطلاب عن تعليقاتهم علي طريقة عرضه، فرد فضل سريعًا دون أن يدرك، أعتقد يا أستاذ أن القيصر منحك الجنسية الرومانية قبل أن يموت. ضحك الأستاذ بالرغم من غيظه من تهكم فضل وضحك الطلبة وأطلقوا على الأستاذ لقب قيصر منذ ذاك اليوم.

عاد فضل بذاكرته إلى الوراء عندما قرأ في أحد كتب التاريخ أثناء دراسته للماجستير أن هناك معلومات ناقصة في قصة ترك الرومان لمصر وكيف أن هذه المعلومات التي في الغالب عبارة عن وثيقة تفاهم أو إعلان رسمي سري لها أهمية قصوى في تفسير التاريخ وخاصة هذه الحقبة المهمة في تاريخ مصر القديم ونهاية عصر الفراعنة مما قد يغير من كتب التاريخ التي تدرس في المدارس والجامعات.

أخذ يقلب في أوراق الملف ببطء والمكون من عشرة ورقات صفراء مكتوبة بخط اليد الروماني الفصيح سهلت عليه قراءتها. ابتسم وهو يقرأ ما بين سطور الأوراق سريعًا وتذكر محبوبته وكلمات الحب التي يسقيها إياها أثناء عذب اللقاء فقد كانت

كلمات معظم الصفحات حب في حب ولكن بطريقة قيصيرية فيها علو المكانة والاعتزاز والشموخ القيصري عندما يحب، وهو يقلب في الأوراق ليستعد لتهيئة مزاجه للترجمة الدقيقة ليشبع رغبته الدفينة، إذ به يجد الصفحتين الأخيرتين عليهما ختم القيصر وليس فيهما كلمة حب واحدة بل كلمات قوية ومحددة تصف حال وشروط ترك القيصر لمصر الفرعونية والمدة الزمنية وفوق كل ذلك حقوق الحكومة الرومانية والمصرية.

اندهش فضل وفرغ فاه من هول المفاجأة ومن مدى أهمية هاتين الصفحتين ليس لإيطاليا ومصر فقط ولكن أيضًا للعالم أجمع، فهذه الوثيقة ليست فقط تفسر التاريخ وتكمل جزءًا مفقودًا فيه ولكن أيضًا وهو الأهم سياسيًا ولوجستيًا لمصر بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فبها تستطيع مصر أن تحصل على الكثير من الحقوق الضائعة بل وبالإضافة إلى ذلك مشاركة الرومان في بعض الإرث وفي ظهور مصر بالغالب والمنتصر حينئذ وليس المغلوب على أمره، نظر فضل إلى عزيز الذي بدل الملفات ونظر إلى الملف واغرورقت عيناه وتوقف عن الترجمة للحظات قبل أن يفيق مرة أخرى على صوت عزيز، مالك يا شيخنا، أنت محسود النهاردة. إيه الحكاية مش ناوي شغل النهاردة ولا إيه؟ ده أنا قربت أخلص الملفات اللي معايا.

رد فضل صائحًا وبأعلى صوته، بل أنت يا أعز صديق من أدعوه للغداء على حسابي أنا وفي أرقى مطاعم المدينة، مدينتي العتيقة، القاهرة. إيه ده؟! معقول، ده أنا عمال أفتخر بعزومتي علشان أذلك بيها، لا طبعًا مش موافق ومصر على عزومتي، بس إيه التحول الكبير ده في لحظات؟! إيه اللي حصل غيرك كده مزاجيًا وماديًا؟! لقيت كليوباترا عندك في الملف الروماني بتضحك لك أو كاتبالك ورث، فرحني معاكي يا حبيبي وقولي إيه كلمة السر اللي تغيرك كده فجأة في يوم الملل العالمي.

هو فعلاً سر يا صديقي بس مش عليك، سر من أسرار الدولة، سر حربي، سر عبارة عن معاهدة بين الرومان ومصر. طيب وإيه يعني يا فضل ما فيه معاهدات كثيرة تمت ومحفوظة، إيه الجديد في ده؟! لا يا حبيبي الملف ده مختلف وبعدين مش هقولك دلوقتي ولكن ممكن أثناء الغدا اللي برضه على حسابي. مش ممكن الغدا كده كده على حسابي بس لازم أعرف إيه الموضوع؟! أنت ناسي إني أنا اللي بدلت الملفات يا حبيبي.

عمومًا ماتستعجلش يا عزيز، كلها أربع ساعات وأحكي لك على الغدا بعد ما أكون قرأته بتمعن وحللته وعرفت قيمته. خلاص، موافق، توكل على الله، ومين عارف يمكن ده الملف اللي

ملفوفة فيه خطيبتك، خد بالك أحسن تكون عملتها فيك. بضحكة عالية كلها مرح وتفاؤل وحب ومزاج عال، فتح فضل الملف وبدأ يترجم فيه كلمة كلمة وحرفًا حرفًا دون أي تغيير حتى وصل إلى الصفحات الأخيرة، ولأول مرة قام بتصوير الملف قبل أن يرسله للمسئول مخافة عليه ومن إتلافه أو ضياعه، وكذلك أيضًا قام بتصوير ما قام به من ترجمة كاملة وتحليل كامل وتلخيص.

هاي فضل إزيك، ماكلمتنيش على التليفون النهاردة أربع مرات كالعادة، هو أنت بسرعة كده زهقت مني بعد ما كنا مع بعض في الأجازة يوميًا؟! أنا زعلانة يا حبيبي ولازم تصالحني. يا حبيبتي، أنا لم أنساك لحظة بل كنتي معي طوال الوقت وأنا أقلب في ملفات اليوم ولسه مخلص آخر واحد دلوقتي. بقى كده يا فضولي، دي أخرتها، تفتكرني وأنت وسط الملفات القديمة واللي عليها تراب. فعلاً هو ده اللي حصل علشان كلها كانت قصص عشق روماني رائعة، فعشت معكي قصتنا هنا على التاريخ الروماني العتيق. معقول!! هو أنت خلاص جالك ملف روماني أخيرًا، مبروك يا قيصر مصر وقيصر قلبي وعقلي. أخيرًا يا جميلتي، وليس هذا فقط بل هو من أجمل وأهم الملفات. أنا مشتاقة أعرف، ده أنا خلاص كنت بفكر ألبس روماني وألفلك نفسي وأبعتهالك في ملف قديم علشان ماتزعلش، خلاص بقى،

ألبسلك لبس كليوباترا النهاردة ونتقابل بالليل على النيل صديقنا. أوك حبيبتي، هاتغدا مع عزيز وأشوفك بالليل، الظاهر الملل طلقني اليوم وذهب مع الريح.

احكِ لي بقى يا سيدي عن الملف وإيه اللي فيه جديد خلاك تتنطط كده في الشغل؟؟ باختصار، الملف فيه أخطر وأهم وثيقة سياسية وعسكرية تهم مصر في اتفاقيتها مع الرومان أثناء تركهم الحماية على مصر، وهذه الوثيقة منقوصة وكان الكل يبحث عنها ليس في مصر وإيطاليا فقط بل العالم كله لتكمل تاريخ حقبة كانت أحداثها مفقودة تمامًا. وبهذه الوثيقة نستطيع أن نعيد كتابة التاريخ المصري في هذا الوقت وعليه من الممكن المطالبة ببعض الحقوق والواجبات بل وببعض الإرث الروماني، هذا على المستوى العالمي والقومي، أما على المستوى الشخصي فأستطيع التسجيل لدرجة الدكتوراه في هذه الوثيقة والوثائق المتعلقة بها لإعادة صياغة تاريخ مصر القديم في عهد الرومان.

رائع يا فضل رائع، أخبار مهمة جدًا، ولكن كيف تحقق ذلك والمسئولون لا يهتمون بمثل ذلك كما تعلم خاصة أن هذا الملف وصلني كغيره دون أي تأشيرة تدل على أهميته؟؟ هذه هي المشكلة يا عزيزي ولكنها فرصة العمر لي وسوف أدافع عنها وأقاتل

لكـي يرضـى بهـا ويقتنـع المسـئولون. أتمنالـك التوفيـق يـا فضـل، والظاهـر إن ربنـا بالفعـل اسـتجاب لدعـاء والـدك مـرة واحـدة، بـس خليـه يسـتمر شـوية كمـان لحـد مـا تسـتفيد منهـا. ضحـك فضـل علـى دعابـة عزيـز وأقبـلا يلتهمـا الغـداء سـويًا بنهـم وشـهية كانـت نائمـة منـذ عشـرة أعـوام.

رفـع فضـل التقريـر المفصـل بأهميـة الملـف التاريخيـة والسياسـية والتعليميـة وانتظـر كثيـرًا الـرد ولكـن لا حيـاة لمـن تنـادي كمـا توقـع، لـم يشـأ أن ينتظـر أكثـر مـن ذلـك فطلـب لقـاءً مـع المسـئول الأول في المؤسسـة والـذي لـم يلـبِّ طلـب فضـل لمقابلتـه كمـا أراد فقـرر أن يقتحـم مكتبـه عنـوة ويبـين لـه الأمـر وأهميتـه وكيـف للمؤسسـة أن تحقـق سـبقًا علميًـا كبيـرًا إذا اهتمـت بهـذه الوثيقـة، ولكـن وللأسـف تحـول الأمـر إلـى شـجار وعـراك بـين فضـل ورئيسـه وانتهـى اللقـاء بطـرد فضـل مـن المكتـب وتحويلـه للتحقيـق لاقتحامـه المكتـب واختـلاق المشـاكل مـع رئيسـه.

خـرج فضـل مـن المكتـب غاضبًـا ولا يـدري مـاذا يفعـل بعـد أن فقـد كل الحيـل وتحـول للتحقيـق؟؟ ذهـب إلـى صديقـه عزيـز لإخبـاره مـا حـدث فنصحـه عزيـز أن يتقـدم علـى الفـور بشـكوى رسـمية ضـد رئيسـه شـارحًا فيهـا كل المعلومـات وأهميتهـا للدولـة، وتحـت الضغـط

النفسـي قـام فضـل بالفعـل بتقـديم الشـكوى بغـض النظـر عـن أي مخاطـر، فهـا هـو قـد تحـول للتحقيـق فلـن يحـدث أكثـر ممـا حـدث مـن طـرد.

لـم تمـر أيـام حتـى وصـل خطـاب رسـمي إلـى فضـل للتحقيـق والـذي انتهـى بوقفـه عـن العمـل لحـين انتهـاء التحقيق واتهامـه بإهدار المسـتندات الحكوميـة وتخريبهـا. تعجـب فضـل مـن هـذا الحكـم ولكـن تقبلـه بنفـس راضيـة وتناسـى سـكوته فكفـى مـا حـدث حتـى الآن وليفعـل الله مـا يشـاء، لـم يعجـب عزيـز استسـلام فضـل لهـذا الرئيـس وحـاول أن يقنـع فضـل برفـع قضيـة أو تقـديم شـكوى للـوزارة ولكـن لـم يشـأ فضـل عمـل ذلـك واعتبـر فتـرة توقفـه عـن العمـل فرصـة سـانحة لـه لكـي يرتـاح قليـلاً ليعمـل علـى هـذه النقطـة ودراسـتها مـن أجـل تجهيزهـا للدكتـوراة ولكـن ـ في ايطاليـا.

●●●

نزيف الأحلام

«ولدت أحلامه من جديد على بقع الدم المتجمدة لتقابل الواقع الذي أتى من بعيد في نفس التوقيت وبلا تأخير».

رن جرس التليفون ولم يشأ محمود أن يرد وهو مستمتع بدفء الفراش في برد هذا الشتاء القارص وأخيرًا أمسك بالسماعة ليرد وهو في حالة تثاؤب ممزوجة بالضجر انعكست على نبرات صوته وهو يرد على المكالمة.

وما إن سمع محمود الخبر الذي جاءه من الجانب الأخر في مكالمة لم تزد عن دقيقتين حتى انتفض من فراشه كأن جسده استجاب لقرار عقله قبل أن يفكر الأخير ويقرر كيف يستجيب لهذا الخبر، جرى محمود بجسده إلى الحمام وعقله وقلبه ينشدان الأحلام ليضع كل حواسه تحت الماء الدافئ لدقائق شعر فيها وكأنه يغتسل من كل الأفكار السلبية أو كأنه يروي أحلامه بماء الحياة حتى تنتشي وتقبل على الواقع القادم بعد قليل.

اتجـه جسـد محمـود إلـى الـدولاب يبحـث عـن بذلتـه الأنيقـة، واتجـه عقلـه إلـى أحلامـه التـي يتصاعـد بخارهـا مـن رأسـه مـن شـدة غليـان أفـكاره، واتجـه قلبـه إلـى حبيبتـه التـي تـدور حولهـا نصـف أحلامـه.

لـم يسـتطع محمـود انتظـار المصعـد ودون أن يـدري اتجـه نحـو السـلالم وأخـذ يراقـص درجاتهـا برشـاقة مبهجـة وكأنـه راقـص محتـرف للسامبـا ودون أن يشـعر وجـد نفسـه فجـأة علـى درجـات الـدور الأول وأنفاسـه متلاحقـة بعـد أن راقـص خمسـة عشـر دورًا مـن السـلالم.

عندمـا رأى محمـود الشـارع شـعر وكأنـه يـرى العالـم أول مـرة مـن بعـد حرمـان مـن الانطـلاق عانـى منـه طـوال سـنين عمـره الثلاثـين. اسـتقبلته أشـعة الشـمس الدافئـة بحنـان غلفتـه بأشـعتها الذهبيـة وكأنهـا تعوضـه عـن حنـان أمـه ودعائهـا الـذي انقطـع آخـر نفـس زفرتـه ثـم شـهقته وهـي مسـتلقية علـى صـدره في حشـرجة المـوت.

واسـتقبله ضـوء النهـار السـاطع الدافـئ الضاحـك وكأنـه يعوضـه عـن دعـم والـده الـذي لـم ينقطـع عنـه إلا بعـد أن عـاد إلـى مصـر منهـكًا مـن العمـل عشـرة أعـوام في بـلاد الخليـج فنـام في فراشـه مريضًـا حتـى استسـلم لنـداء الفـراق ليتـرك محمـود وحيـدًا بـلا أخ أو أخـت يواجـه الحيـاة بـلا سـند.

نظـر محمـود نظـرة متأنيـة إلـى بذلتـه فخـورًا بلونهـا الأسـود الـذي يزينـه القميـص الأبيـض ورابطـة العنـق الحمـراء وكأنـه أراد بهـذه الألـوان أن يعلـن عـن نفسـه بـعلم مصـر بعـد أن أسـعدته مكالمـة هذاالصبـاح الباكـر فجعلـت مصـر زهـرة يانعـة في عيونـه بعـد أن كانـت حتـى مسـاء أمـس وراء ظهـره.

فتـح محمـود ذراعيـه ليحتضـن نسـمات الهـواء الطيبـة وأشـعة الشـمس الدافئـة تعبيـرًا عـن احتضانـه للعالـم بأثـره في تلـك اللحظات الحاسـمة التـي تحملـه قريبًـا جدًا مـن تحقيـق أحلامـه الورديـة التـي طالمـا ظـن أنهـا سـتبقى أحلامًـا إلـى الأبـد.

بعـد لحظـات مـن توقفـه أمـام العمـارة التـي يسـكن بهـا مشـى محمـود صـوب هدفـه منتشيًا وصـدره عاليًـا وقدميـه تحتضـن الأرض بثقـة عاليـة وسـاعديه تفسـح الطريـق أمامـه وكأنـه ملك تاجـه الكبرياء والفخـر بمكالمـة اليـوم التـي وضعتـه في مكانـه الصحيـح ورفعتـه إلـى مصـاف الرجـال المهمين.

تـراءى لمحمـود مـن بعـد تجمـع كبيـر مـن النـاس وكلمـا اقتـرب مـن الجمـع وجـد الأعـداد تتزايـد مـن الرجـال والنسـاء والأطفـال وسـمع أصـوات هتافـات لـم يتبـين منهـا إلا نـداءات مضـادة لفصيـل دون الأخـر وكأنهـا لمشـجعي مبـاراة كـرة قـدم كل متعصـب إلـى فريقـه.

حاول محمود أن يغير مسار وجهته بعيدًا عن هذا الجمع خاصة أنه لا يحب المظاهرات ولا يحب الانخراط في السياسة إلا أنه لم يستطع نظرًا لأن الحشود قد سدت جميع المنافذ.

وفجأة سمع هرج ومرج وكر وفر بين الفرق المتصارعة وقذف بالحجارة على الرءوس فحاول الابتعاد عن هذا الصخب والفزع إلا أنه وجد جسده محشورًا بين الأجساد بجميع المقاسات التي أحاطته من كل جانب كأمواج بحر هائج تدفعه في كل اتجاه.

لم يهتم محمود في وسط هذه الأحداث الملتهبة سوى ببذلته الأنيقة التي يحتاجها اليوم ليكون بكامل هيئته بعد دقائق أمام الرجل المهم الذي سوف يفتح له أبواب المجد، وحاول محمود عبثًا أن يحافظ على هيئته ولكنه لم يفلح فبدا غاضبًا متحفزًا والناس حوله تظن أنه متحمس لفريق ضد الأخر.

وفجأة سمع محمود من يتشبث بأرجله بأيدي واهنة فنظر تحت قدميه ليرى صبيًا قد طالته قذيفة من الحجارة من يد عاتية، انحنى محمود ليساعد الصبي على النهوض ويحمله بعيدًا.

وما كاد أن يحمله على كتفيه حتى طالته رصاصة حجرية شجت رأسه وأدمت وجهه فنزف كثيرًا اللون الأحمر الذي لطخ بذلته بدم ممزوجًا بدم الصبي حتى تجمد الدم كتلاً صماء وكأنها أشلاء أحلامه التي كان يصفها بذلك حتى الأمس القريب.

جرى محمود يمينًا وشمالاً والصبي على كتفيه متناسيًا دمه السائل ثم سمع صوتًا مدويًا يهز الفضاء فتلفت حواليه فلم يجد إلا رءوسًا أخرى قد شجت وسواعد تتقاتل وأصوات تتحشرج وأجساد تتهاوى كجذوع نخل خاوية، ثقل جسد الصبي فتحسسه محمود على كتفيه فوجده قد سكن فانبطح أرضًا باكيًا الطفل وحظه فوجد صدره ينزف دمًا تسيل معه أحلامه على الثرى، ورويدًا رويدًا ظن أن جسده قد سكن وأن دمه قد تجمد وتجمدت معه أحلامه إلى الأبد.

غاب محمود عن الوعي وتلاحقت أحداث الثلاثين عامًا أمام عينه كفيلم تسجيلي تتصارع أحداثه وتتشابك بسرعة تفوق سرعة الصوت الذي بدا له قادمًا من غور أعماق البحار، صوت تحزمت فيه كل الأصوات التي أدرك بعد إفاقته من غيبوبته أنها أصوات من حملوه على أكتافهم إلى أقرب مستشفى هو والصبي الذي كان يحمله على كتفيه.

فوجئ محمود حوله بالرجل المهم صاحب مكالمة هذاالصباح والذي أتى مسرعًا هو والوفد المصاحب له ليطمئن عليه بعد أن اتصل به من حملوه من خلال الكارت الذي وجدوه في جيب بذلته التي تجمدت عليها الدماء الحمراء.

ابتسـم محمـود بعينـه وقلبـه وشـفتيه لمـن حولـه والصبـي الـذي يرقـد علـى السـرير المقابـل مبتسـمًا وملوِّحًـا بيديـه فقـد ولـدت أحلامـه مـن جديـد علـى بقـع الـدم المتجمـدة لتقابـل الواقـع الـذي أتـى مـن بعيـد في نفـس التوقيـت وبـلا تأخيـر.

●●●

ومن رائحة الموت تولد الحياة

«محن الحياة شباك تلقى في نهر التحديات فتصيد الغث والسمين فيذهب الغث بشماتته وأشلائه ويبقى السمين بصدقه وولائه».

مرة يمشي بخطى واسعة ومرات بخطى بطيئة ورأسه محملة بأفكار متشابكة تتصارع فيما بينها حتى تمنى أن تنفجر رأسه لتخرج منها تلك الأفكار النارية.

فجأة وجد نفسه ودون أن يدري أمام مياه النهر وهو ينظر إليها من جانب الكوبري في ظلمة الليل التي تخترقه الأضواء الخافتة من أعمدة النور على جانبي الطريق.

تنهد بعمق وكتم أنفاسه كأنه يعاقب رئتيه حتى اهتزت أضلاعه وتمنى أن لو كان بمقدوره أن يلقي بنفسه في تلك المياه العميقة حتى يتخلص إلى الأبد من تلك الأفكار والهموم التي تنغص عليه حياته فحولتها إلى قطع من نار تحرقه حتى أصبح كخرقة بالية ملفوفة بثياب غالية.

وهـو ـ في هـذه الحالـة اللانهائيـة مـن التفكيـر شـعر بيـد تهـز كتفيه بحنـان فيـه سـؤال، نظـر إلـى تلك الأيـدي فوجدهـا لطفـل تمـلأ وجهـه بسـمة ضاحكـة يرتـدي ملابـس رثـة وعلـى كتفيـه حقيبـة غيـر واضـح مـا بداخلهـا ويمـد يـده بعلبـة منديـل يتمنـى أن يبيعهـا.

مـاذا أتـى بـك إلـى هنـا يـا فتـى؟ ومـا اسـمك؟ اسـمي ربيـع وأتيـت إلـى هنـا لكـي أبيـع مـا عنـدي لأشـتري بـه مـا ليـس عنـدي، ومـن علمـك هـذه الكلمـات الحكيمـة يـا ربيـع. علمنـي إياهـا أبـي الـذي أقعـده المـرض فظـل يبيـع أثـاث البيـت قطعـة قطعـة ليشـتري الـدواء حتـى فـارق الحيـاة.

وأنـت مـاذا تبيـع الآن؟ ومـاذا تريـد أن تشـتري؟ أنـا أبيـع تلـك المناديـل والخـردوات لكـي أشـتري لقيمـات يقمـن صلبـي، ولكـن يـا ربيـع المـكان هنـا ليـس مناسـبًا للبيـع فهـو مظلـم وهـادئ وليـس فيـه أنـاس كثيـرون ليشـتروا مـا لديـك.

أعلـم ذلـك ولكـن تعلمـت أن معظـم مـن يأتـي هنـا في هـذا الوقـت مـن الليـل هـم مـن الأغنيـاء الذيـن يبحثـون عـن شـيء في الميـاه لا أعرفـه ثـم تهتـز بـعدهـا الميـاه بشـدة أو يمشـون علـى جانـب الكوبـري للتأمل.

ابتسم الرجل إلى الطفل وحمل عنه حقيبته وأخذ منه علبة المناديل وأمسك بيده واستبدل الأدوار وظل يبيع المناديل والطفل ينظر إليه متعجبًا كيف يقوم هذا الرجل الذي يرتدي ملابس واضح أنها باهظة الثمن وتفوح منه رائحة العطر الفاقع ببيع مناديل للمارة دون أن يخجل.

لم يبع الرجل إلا القليل من المناديل ولم يجمع من المال ما يذكر، فابتسم وتعجب كيف لهذا الطفل أن يعيش بهذه الفضلات المالية، وتعجب أكثر كيف لم يفكر ربيع في إلقاء نفسه في المياه ليتخلص من همومه كما فكر هو، فما هو السر الذي يجعل هذا الطفل وغيره في حالة رضاء عن النفس بالرغم من الاحتياجات الملحة من مأكل ومسكن ومشرب.

رجع الرجل ومعه ربيع سعيدًا إلى مكتبه في الطابق العشرين في البناية المعروفة وسط البلد وجلس على كرسي مكتبه الوثير وطلب من ربيع أن يجلس أمامه ثم نادى سكرتيرته الحسناء ومدير أعماله وطلب منهما أن يبيعا أكبر مصانعه ليسدد بثمنه ديون المصانع الأخرى التي أنهكته أفكارًا تتصاعد منها الهموم النارية.

بـدا مديـر أعمـال الرجـل مندهشًـا لمـا يجـري فلابـد أن هنـاك حـل آخـر غيـر البيـع هـذا والـذي سـوف يخسـف بثمـن المصنـع إلـى الأرض، لـم يتمالـك مديـر أعمـال الرجـل نفسـه فانطلـق بـكل حججـه ليثنيـه عـن فكـرة البيـع، ابتسـم الرجـل لمديـر أعمالـه ورد عليـه بهـدوء قائـلاً النـاس تبيـع لتشـتري مـا ليـس عندهـا وأنـا أبيـع لأشـتري مـا عنـدي وأشـتري معـه مـا ليـس عنـدي مـن راحـة البـال.

لـم يفهـم ربيـع شيئًا ممـا يـدور حولـه سـوى الرجـل أنـه يجلـس في مـكان كلـه فخامـة ترتعـد لهـا فرائسـه التـي لـم تهـدأ إلا بعـد أن طلـب الرجـل مـن سـكرتيرته أن تأتـي بطعـام العشـاء الفاخـر والعصيـر الطـازج ليتنـاولـه في هـدوء مـع ربيـع.

بـدأ الرجـل منشـرحًا فأخـذ ربيـع في يـده واتجـه إلـى بيتـه ليسـتقرا فيـه سـويًا ليمتلـئ البيـت بضجيـج الأنفـاس بعـد أن كان مهجـورًا مـن الزوجـة التـي فارقـت الحيـاة والأبنـاء الذيـن هجـروا البـلاد بـلا رجعـة.

عـاد الرجـل إلـى مكتبـه في الصبـاح ليعلـق لوحـة علـى مكتبـه بهـا حكمـة كتبتهـا بنـان أفكـاره: «ومـن رائحـة المـوت يولـد حلـو الحيـاة".

●●●

ميلاد من رحم الذنوب

«أعمال الإنسان مثل السيارة دائمًا ما تحتاج إلى صيانة من تقلبات الطريق وأخطاء النفس وأخطاء الآخرين وإلا عطبت أو تنتهي في حادثة طريق».

كان والد سعفان ينصحه دائمًا بأن يعود إلى نفسه وإلى الله من وقت لأخر لينقي نفسه ويتوب عن أعطاب قد تصيب أعماله صغيرة كانت أم كبيرة حتى يستطيع أن يداوم الحياة الطيبة وأن يهنأ بالسلام النفسي، إلا أن سعفان كان يلقي كلمات والده كأنها دوائر جوفاء ويذهب إلى لهوه من كل متع الحياة حتى هجر عمله وهجره الناس.

خرج سعفان من الحانة يترنح يمينًا وشمالاً وكأنه طفل على أرجوحة في الهواء بلا حبال وصوته العالي هو حباله التي يظن أنها تحمله عاليًا كطير محلق في الفضاء.

لم يَعِرْ المارون بحال سعفان المزري لأنهم تعودوا على رؤية أشلاء الرجال كل نهاية أسبوع هكذا دون أن تؤثر شكواهم المتكررة لرئيس الحي في توقف السكارى عن العربدة في المنطقة هكذا دون رادع.

بعد أن تعرض للوقوع أكثر من مرة استند سعفان على الهواء فوقع على وجهه المتورد من أثر السُكْر وسالت الدماء من داخله إلى خارجه معلنة غضبها على تصرفات هذا الفتى الذي لم يتجاوز عمره الخمسة والعشرين عامًا التي شرب فيها من خمر ولِعب ولهو ومجون ما يكفي لإشباع فريق كرة قدم بأعمار فوق الستين.

استمرت الدماء في السيلان على وجهه حتى وجدت لها طريقًا من أخدود على خده إلى شفتيه المفتوحتين لتتنفس الهواء وكأن فمه يطل من رأس سمكة خرجت لتوها من ماء البحر وتقاتل بفمها لتحيا بأقل هواء.

عندما لعق الدماء بلسانه تيقن أنه قد أصيب إصابة بالغة أفاق بسببها من سكره على تأوهات آلامه المبرحة التي لا يعرف من أين تأتي ولا إن كانت من سقطته على الرصيف أم من سقطته في السكر؟!

دارت الدنيا برأس سعفان وتخيل أنه يحمل الكرة الأرضية على أحد قرنيه بل إنه تخيل أن الكرة الأرضية بقارتها الست قد دخلت وفيها كل أبنية وسكان وحيوانات العالم عنوة إلى أذنيه لتسكن داخل جمجمته وللأبد.

ظل يصرخ ويصرخ محاولاً إخراج الأرض من أذنيه حتى تحول الصراخ إلى بكاء فانهمرت الدموع من عينيه وامتزجت بدمائه السائلة من وجهه دون أن تغير الدموع من لون الدماء، ظل يصرخ والأرض في أذنيه ناظرًا إلى أعلى والسماء بين عينيه يبحث عن نفسه هناك فلا يجد إلا أشلاء شاب هجرته حياة الورع وسكنته أشباح هي خيالات حياة تحتضر في تؤدة وذل واستسلام.

خاطب سعفان أعماق نفسه ولكنه لم يسمع سوى أصواتًا خافتة آتية من عظامه وأصواتًا أخرى خافتة ولكنها تبتعد عنه من قلبه إلى الفضاء البعيد.

وكأن هزيان سعفان سكن دموعه ودماءه فقد بدأ يشعر بنفسه ويديه تزحف على الأرض متشبثة بالرصيف الذي وقع عليه قبل أن تسيل الدماء من وجهه والدمع من عينيه ومعهما الهزيان الذي يسكنه من جراء سكره.

لم يستطع سعفان النهوض ولم يستطع أن ينادي على المارة الذين لا يأبهون بحاله ولم يستطع استخدام تليفونه المحمول لطلب الإسعاف أو طلب والده أو حبيبته التي لم يرها منذ شهرين بناءً على طلبها منه كفرصة له أن يتوب عن لهوه وسكره بعد أن وعدها أكثر من مرة فأعطته هذه الفرصة لاختبار قوة إرادته وقوة حبه لها ولنفسه التي بدأت تهرب من عقله وقلبه وجسده.

كلمـا زاد الهزيـان ـ رأس سـعفان وزاد شـعوره بحالـه كلمـا زاد حزنـه علـى نفسـه وكلمـا ضاقـت الدنيـا ـ وجهـه فمـا كان منـه إلا أن وضـع كفيـه علـى وجهـه محـاولاً إخفـاء نفسـه مـن نفسـه ومـن وجـوه المـارة الذيـن بـدأوا يتوافـدون لأعمالهـم ولصـلاة الفجـر ـ المسـجد الغيـر بعيـد والـذي طالمـا تـأذى رواده مـن هـذه المناظـر الفجـة لأنـاس نسـوا الله فأنسـاهم أنفسـهم.

أفـاق سـعفان علـى صـوت ارتطـام شـديد تخيـل للوهلـة الأولـى أنـه ارتطـام الأفـكار برأسـه ولكنـه سـرعان مـا تأكـد أنـه ارتطـام خـارج حـدود أفـكاره وعقلـه ليـس ببعيـد منـه.

وعقـب ذلـك بارتطـام آخـر لصـوت انفجـار مـدوٍ خلـع قلبـه ومفاصلـه وحولـه إلـى قطـع مـن الأفـكار المتناثـرة التـي أنسـته حالـه المـذري فاسـتقوى بمـا بقـي مـن قـوة ـ يديـه وعـزم ـ رجليـه وجـرى ـ كل الاتجاهـات حتـى وجـد جسـده محشـورًا مـرة أخـرى بين أجسـاد السـكارى داخـل الحانـة فقـد أخذتـه قدمـاه إلـى هنـاك دون أن يشـعر ظنًـا منهـا أن هـذا المـكان هـو بيـت الأمـان.

فوجـئ سـعفان بـأن الحانـة ـ هـرج ومـرج وأنـاس يهرولـون داخلـون وآخـرون يخرجـون بـل يهربـون بمـلابس ممزقـة ووجـوه متربـة وآثـار دمـاء علـى الأجسـاد حتـى ظـن أنـه يـرى نفسـه ـ النـاس مـن

شـدة سـكرة آلامـه، ولكنـه فوجـئ بهـول الحقيقـة لما رأى ركامًـا هنـاك مكومًـا علـى الأرض والأجسـاد تحتـه والنـاس يصيحـون ويسـتغيثون ولا مـن ملـبٍ للنـداء إلا مـن بعض الأيـادي المتعبـة التـي لـم يطلهـا هـول انهيـار البنيـان المجـاور علـى رءوس سـاكنيه وعلـى رءوس مـن كانـوا سـكارى بالحانـة وقـت الانهيـار.

العقـار المجـاور الـذي انهـار كان رمـزًا للبـذخ وانكسـار القوانين في هـذا الحـي الـذي يعيـث فيـه السـكارى في الحانـة فيكفـي أن أصحـاب العقـار وملاكـه ومـن بنـوه هـم أصحـاب هـذه الحانـة، الملهـى الليلـي الـذي ضـاق بـه سـكان الحـي ذرعًـا والذيـن لـم تشـفع لهـم شـكواهم لمسئولي الحـي لا في وجـود الملهـى الليلـي ولا في مخالفـة بنيـان العقـار الـذي كانـت نصـف أدواره زائـدة عـن المسـموح.

وطالمـا طـال أذى أصحـاب الحانـة الشـاكين مـن أهـل الحـي أمـام مـرأى ومسـمع مسـئولي الحـي الموالـين، الآن وقـع البنيـان علـى رءوس مـن بنـوه وعلـى سـقف الحانـة التـي تتهـاوى الآن هـي الأخـرى في السـقوط وتصدعـت جدرانهـا كمـا تصدعـت جـدران سـعفان في سـقطته علـى الأرض مـن جـراء سـكرته حتـى مـن قبـل أن يسـقط البنيـان.

تمنـى سـعفان أن يسـعف المصابـين ولكنـه هـو نفسـه يحتـاج إلـى مـن يسـعفه، تذكـر كيـف أن والـده أعطـاه هـذا الاسـم ليكـون رمـزًا للخيـر والعطـاء للآخريـن يسـعفهم ويخفـف عنهـم آلامهـم وجروحهـم. بكـى سـعفان لمـا رأى نفسـه عاجـزة عـن حتـى مسـاعدة نفسـه.

ولكنـه اسـتجمع قـواه وتأبـط عزيمتـه الكامنـة في أعماقـه ولملـم أشـلاء أنفاسـه وبـدأ يسـعف قـدر مـا يسـتطيع ويطبـق مـا قـد علمـه والـده مـن فنـون الإسـعاف التـي لـم يزاولهـا مـن وقـت تعلمهـا، وجـد سـعفان يديـه بـين أيـادٍ أخـرى كثيـرة جـاءت تجـري مـن المسـجد الـذي ليـس ببعيـد ومـن أهـل الحـي النائمـين ليسـعفوا مـن تحـت الأنقـاض بمـا فيهـم مـن بنـوا البنيـان وأداروا هـذه الحانـة لسـنوات وبالطبـع تناسـوا مـا كان مـن مشـاحنات وشـكاوى واتهامـات وأذى طـال الكثيـر من أهل الحي.

وقـف سـعفان وسـط النـاس لا يـدري أيبكـي أم يضحـك ممـا يـرى مـن أحـداث؟! فمـن تجبـروا هـم الآن تحـت الركام ينتظرون الإسـعاف مـن أيـادٍ كانـوا يتمنـون أن يقطعوهـا إلـى الأبـد، أدرك سـعفان أن لـذة الحيـاة ليسـت في السـكر واللهـو بـل تكون في النـاس وللنـاس الطيبـين وأن يسـتعيذ بـالله مـن أصحـاب الشـياطين.

ابتسم سعفان وقال في نفسه: جميل جدًا أن تحل بك الشدائد وتهجرك الأشياء والأنفس، فحينئذ سوف تدرك أن الله هو الوحيد الضامن والرفيق في المحن والشدائد، إنه بالفعل شعور لا يعوض، هو أغلى من كل الأشياء وأعز من كل الأنفس، أن تكون في معية الله، وهذا يكفي.

وانكب على إسعاف الأجساد المكسورة تحت الأنقاض وفي جسده قوة وفي عقله نشوة وفي قلبه فرحة بأنه الآن سعفان الحقيقي الذي لملم أشلاءه من تحت أنقاض السكر واللهو والمجون ليولد من جديد بروح جديدة فيها عزة ونبل الحياة مع والده ومع حبيبته التي طال انتظارها.

وهكذا يولد الناس مرتين ولكن ميلاد النفس من رحم ذنوب الحياة هو الميلاد الحقيقي وهكذا ولد سعفان من جديد.

●●●

طبيب يوم الخميس

«المشاعر الإنسانية كالدقيق، إن هبت عليها رياح البغض تذروها، وإن صبت عليها مياه الإخلاص تصير خبزًا للقلوب الطيبة».

اليوم هو يومي المفضل ففيه أستمتع بعيادتي في وجود عدد قليل من المرضى من الأصدقاء حسب برنامجي الأسبوعي، اليوم أستطيع أن أفضفض معهم عن هموم عيادتي وقلبي وعقلي وأنا أستمع إلى شكواهم، إنه يوم فسحة العمل الذي أنتظره كل أسبوع فمرضاي يدركون ذلك جيدًا وكأنهم يأتون ليمرضوني ويستمتعون بشكواي وكأنه انتقام من تطبيبي لهم أو من يدري لعله رد الجميل، ابتسم د/ سعيد وهو الاسم الذي يعشقه ويزهو دائمًا أن والده منحه إياه حتى يضمن له السعادة، وبالفعل فهذا الاسم يحفزه دائمًا على أن يكون عند حسن ظن الشعور بالسعادة.

بقميصه بلونه الأزرق المفضل وبنطلونه الكاكي وحذائه الكاجوال أدار د/ سعيد سيارته بتمهل وببطء مقصود وكأنه يفرد عضلات إرادة السعادة على كل شيء يتعامل معه، فكل سلوكه اليوم يتحول إلى النقيض، من ألوان ملابسه المنسقة إلى

المتمردة، كل لون عالم بمفرده، ومن السرعة في أداء كل المهام إلى البطء المتعمد اللذيذ.. قاد عربته ببطء وسط شوارع العاصمة المزدحمة غير عابئ بكلاكسات السيارت وراءه، ولكنه يبتسم غير مبال، ما أحلى يومك يا سعيد، ما ألذ أن أكون غير كل يوم، ما أروع أن أحاول أن أكون سعيداً، حقًا التمرد على الروتين نوع حلو من السعادة لمن يقدر عليه، وها أنا ذا أستطيع.

ركن السيارة على جانب الطريق وليس في الجراج المخصص لسيارته كالعادة وهو يتبختر كأنه ملك الدنيا كلها بين يديه ويوزعها على من يريد نفحة من ابتسامة أو نظرة أو كلمة فهو سيد اليوم يفعل ما يشاء، يشعر د/ سعيد بنشوة غامرة بكل خطوة وبكل حركة وبكل لمسة وكأنه يداعب الأشياء ويغازلها بعيون ناعسة، يمد يده وبها نقود الصدقة التي يعدها مساء كل خميس لأناس يعرفهم وينتظرونه كل صباح خميس ليسعدوا بكرمه اللامحدود بهذه الأموال فهو والحمد لله حساباته البنكية فاقت ما كان يحلم به دومًا ويتمناه. ولحبه الشديد لهذا العمل الأسبوعي تعود د/ سعيد بتعطير هذه المبالغ المالية بنفسه ليدخل السعادة على هؤلاء الناس ليسعدوا بالنقود والعطر الذي تعودوا على شذا عطره ولو مرة كل أسبوع، وما أذكى هذه الرائحة العطرة التي لا يعرفون لها اسمًا فيكفي أنها من زجاجة عطر د/ سعيد.

صعد درجات السلم درجة درجة ببطء وكأنه يعدها عدا غير عابئ بالأدوار السبعة وباب المصعد الذي يقف أمامه البواب بابتسامته العريضة محييًا د/ سعيد ومفسحًا له طريق السلم وكأنه يفتح باب المصعد كنوع من الدعابة التي تعود عليها بمرح كل خميس الذي يتعمد فيه ألا يستخدم المصعد.

والكثير من المترددين على العمارة يعرفون د/ سعيد جيدًا لتعودهم على رؤيته كل أسبوع على السلم حتى صاروا شبه أصدقاء مما يجعله سعيدًا بسلامات هؤلاء الناس بالأيدي والعيون والإيماءة عن بعد فلا يشعر بدرجات السلم إلا وهو أمام باب عيادته ليجد مساعده يفتح له الباب بالابتسامة الخاصة بكل يوم خميس.

بهدوء واسترخاء مغلف بنظرات متأنية وكأنه يستمتع بلوحة كلاسيكية ألقى د/ سعيد نظرة على الصالة التي مازالت فارغة فهو يأتي مبكرًا قبل المرضى من الأصدقاء، يجلس هناك على كرسيه المفضل بركن الصالة ليتلذذ لبضع دقائق بشعور المنتظر مثله مثل مرضاه يتصفح فيها الجرائد والمجلات المرصوصة على المنضدة وهو يتحدث مع مساعده وكأنه قد تحرر اليوم من سماعته وأدوات الطب التي تحاصره طوال أسبوع العمل

سـواء بالعيـادة أو بمستشـفى الجامعـة التـي يعمـل بهـا أو العيـادات بالمستشـفيات الخاصـة التـي يحـول إليهـا مرضـاه كلمـا تتطلـب الأمـر.

مـا أجمـل شـعور التحـرر والانطـلاق مـن قيـد الوظيفـة وروتـين العمـل اليومـي ومـن العلاقـات الرسـمية مـع النـاس وأبـواق السياسـة المصطنعـة، إنـه شـعور رائـع يجعـل صاحبـه وكأنـه طيـر أُطلق من عشـه أو أسـير فُك مـن قيـد أسـره، آه لـو كان لـي هـذا التحـرر نصـف أيـام الأسـبوع لكنـت مـن المحظوظـين ولكـن كفـى بيـوم لا يمتلكـه الكثيـرون ويتبعـه جمعـة هـي الأخـرى التحريـر نفسـه مـن كل القيـود بـلا حـدود.

نهـض د/ سـعيد مـن علـى كرسـيه قاصـدًا مكتبـه ليبـدأ طقـوس يـوم الخميـس مـن اسـتماع إلـى الموسـيقى الهادئـة بـكل أنواعهـا والأغانـي الكلاسـيكية التـي يعشـقها وهـو يدنـدن وممـددًا قدميـه علـى مكتبـه في اسـترخاء وكأن كل خليـة في جسـده تغنـي لحـن الهدوء.

دخـل عليـه مسـاعده وجلسـا سـويًا يناقشـا أمـور الحيـاة بتفـاؤل دون التعـرض إلـى أي منغصـات فاليـوم يـوم السـعادة والهدوء والأخبار السـعيدة ولا مـكان للهمـوم، علـت الضحـكات بينهمـا تمـلأ ألحانهـا المكان بالبهجـة والمـرح وقهقهـة الضحـكات علـى النـكات.

جلجلـة الأصـوات قادمـة مـن الخـارج في صالـة العيـادة، اسـتأذن المسـاعد ليخـرج إلـى الأصدقـاء ليرتـب معهـم لقـاء د/ سـعيد كعـادة

كل خميس، لوح د/ سعيد إلى مساعده بمرح على لقاء بعد دقائق مع أول صديق أيًا كان فاليوم يوم الأصدقاء بطب وطبيب غير كل الأطباء.

تزايد صوت الجلجلة بالخارج وظن د/ سعيد أنه قد يكون المرح العالي لبعض الأصدقاء ممن تقابلوا في الخارج سويًا، فمعظم أصدقائه من أيام الدراسة. انتظر على مكتبه حتى تهدأ الجلبة ويدخل أيًا كان من الأصدقاء لبدء برنامج اليوم المفتوح بدون ترتيب مسبق، انتظر وانتظر ولكن لم يدخل أحد عليه بل دخل مساعده مسرعًا بوجه شاحب وعينين زائغتين وصوت متحشرج لا يدري ما يستطيع أن يقول.

ما بك؟ لماذا تبدو هكذا؟ هل ألم بك مكروه؟ ماذا حدث بالخارج لتبدو بهذا المظهر المذري في يوم الخميس؟!

لا أدري ماذا حدث د/ سعيد ولكن الأمر جد خطير ولم يخطر لي على بال من قبل.

ألهذا الحد الوضع مهم؟! أم هذا مقلب من مقالب الأصدقاء أوزعوك أن تتقنه معي لكسر مزاجي العالي ثم يأتون ليضحكوا عليَّ؟! لا يا عزيزي لعبتك انكشفت، عد إليهم وأتِ لي بأحدهم.

يـا دكتـور سـعيد أصدقـاؤك ليسـوا بالخـارج فقـد ولـوا الأدبـار عندمـا شـاهدوا مـن بالخـارج إلا واحـدًا منهـم وأنـا وأنـت فقـط هنـا نواجـه هـذا الموقـف الصعـب.

أجادٌّ أنت فيما تقول؟!

نعم سيدي.

إذًا دعني أخرج لأرى ما رأيته أنت.

لا تخرج إليهم يا د/ سعيد فالوضع خطير وقد يفتكون بك.

عمن تتحدث؟ أنا لا أفهمك، مؤكد أنك تمزح.

طلـب د/ سـعيد أصدقـاءه المتوقـع أن يأتـوا اليـوم لزيارتـه والاسـتمتاع بالبرنامـج فأكـدوا لـه مـا قالـه مسـاعده وبـرروا تركهـم المـكان بسـبب خطـورة الموقـف واحتماليـة التراشـق والإصابـات.

لـم يصـدق د/ سـعيد أصدقـاءه فقـد يكـون موقفًـا متحـدًا منهـم لعمـل فصـل فيـه اليـوم ثـم يأتـون لاحقًـا ولذلـك قـرر أن يتصـل بأحـد الأصدقـاء الـذي لا يشـترك في مثـل هـذه المقالـب لجديتـه وصرامتـه الشـديدة، اتصـل بـه وتأكـد لـه أن مـا قالـه المسـاعد والأصدقـاء حقيقـة وعليـه أن يتدبـر الموقـف قبـل أن تتصاعـد الأمـور وتسـتفحل، وفوجـئ أن هـذا الصديـق هـو الوحيـد الـذي لـم يرحـل بـل ينتظـر بالخـارج حتـى تنتهـي هـذه الأزمـة.

انزعـج د/ سـعيد جـدًا ممـا يحـدث فمؤكـد أن شـيئًا جلـلاً مـا حـدث، مـا هـو لا يـدري وبـدأ يشـك أن هـذا الأمـر مدبـر للكيـد بـه ونجاحاتـه التـي مـلأت الأخبـار منـذ سـنين حتـى أصبـح يشـار إليـه بالبنـان في كل مـكان والإعـلام والفضائيـات، وبـدأ يعـود إلـى الـوراء لتاريخـه العلمـي والاجتماعـي والوظيفـي، وعـن الثغـرات التـي قـد تكـون هنـاك والتـي قـد يسـتخدمها الحاقديـن ضـده والتشـهير بـه، ولكـن لمـاذا الآن؟!

وبعـد تفكيـر طويـل قـرر د/ سـعيد أن يخـرج لمـن في صالـة عيادتـه ويواجـه الأمـر أيًـا كان فهـو علـى الأقـل في عقـر داره ومـن الممكـن أن يتصـل بأحـد أصدقائـه الكبـار بالشـرطة لفـض أيـة مظاهـرات أو اتهامـات.

ومـا إن ظهـر في الصالـة حتـى وجـد العشـرات مـن المرضـى في حالـة تظاهـر سـلمي ومنهـم مـن علـق علـى صـدره وشـاحًا أسـود علامـة علـى الحـداد ومنهـم مـن رسـم علـى صـدره صـورة للكبـد وعليهـا علامـة إكس وآخـر صـورة للقلـب وآخـر للكليـة وآخـر للأمعـاء وكأن الصالـة تحولـت إلـى زحـام مـن الأعضـاء البشـرية في حالـة تظاهـر وتحفـز، وعندمـا طـلّ مـن بـاب العيـادة وجـد طابـورًا طويـلاً علـى السـلالم حتـى الشـارع وبنفـس طريقـة التظاهـر بـلا أصـوات

ولكـن أزيـز همهمـات تعلـو وتهبـط بهـا الصـدور وعليهـا رسـومات الأعضـاء البشـرية.

لـم يفهـم د/ سـعيد مـا يجـري ولـم يـدرِ مـاذا يفعـل فهـو يتذكـر كل هـؤلاء النـاس جيـدًا فهـم مرضـاه ومنهـم مـن شـفي تمامًـا علـى يـده ومنهـم مـن أنـزل لـه شـكرًا في الجرائـد والمجـلات امتنانًـا لـه بعـد شـفائه، إذًا لمـاذا الآن؟! ولمـاذا لا يتكلمـون؟! لمـاذا الهمهمـات؟! ولا رد لأي مـن أسـئلته ولمـاذا هـذه الأعضـاء خاصـة؟! ألأنهـا هـي تخصصـه المكتـوب علـى العيـادة مـن الخـارج أم أنهـا إعـلان عـن تفكك الأعضـاء؟! وقبـل أن يصـرخ فيهـم د/ سـعيد ليتكلمـوا ليفهـم ويـرد، فوجـئ بوجـه يعرفـه تمامًـا، وجـه وراؤه وجوهًـا أخـرى تعـود أن يراهـا مـن حـين لآخـر، إنـه هـو الصاحـب في العمـل والحـزب السياسـي الـذي ينتميـان إليـه، الحـزب الـذي يسـاند نشـاطه الطبـي والسياسـي في كل القنـوات حتـى أصبـح نجمًـا إعلاميًـا، مـا إن رأى الابتسـامة الصفـراء تمـلأ هـذا الوجـه بتمكـن حتـى اسـتوعب الـدرس وعـرف أن سـاعة الصفـر التـي كان يخشـى منهـا دائمًـا قـد حانـت مـن ضربـة مـن معـول مـن أقـرب النـاس إليـه، معـول كان يهـدد بـه دائمًـا لاسـتخدامه وقـت اللـزوم بحرفيـة مطلقـة ومباغتـة إذا زاد نجـم د/ سـعيد عـن الحـدود المرسـومة لـه في سـماء المجـد ولـو بالصدفـة، فـكل نجـم لـه حـدود في السـماء.

هنا أدرك د/ سعيد لماذا لا يتحدث المرضى؟ ولماذا هم كالروبوت؟ ولماذا هذا الوجه الآن؟ ولماذا هذه الوجوه التي طالما كان يحاول البعد عنها؟ وهنا فقط أدرك د/ سعيد أن نجمه قد انطفأ في سماء المجد المقررة له سلفًا، وهنا فقط ابتسم د/ سعيد وشعر أنه حر غير مقيد بسماء. وهنا فقط قرر أن يبحث عن سمائه هو بحدود يرسمها هو بمجده الحقيقي.

وهنا فقط قرر د/ سعيد أن تكون جميع أيام حياته ليلة خميس ويوم خميس.

●●●

أفكار جنائزية

«يقولـون العمـر لحظـة، ولكنـي أقـول أنـه ملاييـن اللحظـات التـي قـد تختصـر فـي لحظـة مملـوءة بعنفـوان الذكريـات».

ضاقت الدنيا عن آخرها في عيني سعد، فلم يعد يرى سوى الظلم الذي سكن كل خلية فيه حتى أُطلق عليه لقب كبير المظلومين، ومع أن هذا اللقب أراحه نفسيًا نوعًا ما لإحساسه أن أهل قريته يشعرون بأوجاعه والظلم الواقع عليه من هذا الرجل الخارق الذي يتحكم في كل شيء، إلا أنه دائمًا ما يشعر بغصة في حلقومه من جراء هذا الظلم البين الذي لا يستطيع رده أو حتى مناقشته. ولأن اليوم الخميس والذي تعود فيه كل أسبوع زيارة والديه ليشكو لهما الهموم ويلقي بأحزانه خارج قلبه أمامهما لعلها تهدأ وتستكين، قرر سعد أن يخرج ويترك العودة بلا وقت محدد فهو اليوم في زيارة مفتوحة لأهله كيفما طالت.

أناس هنا وهناك، رجال وأطفال ونساء وشيوخ بكل الألوان واللغات والثقافات، تجمعوا حوله متعلقين بثيابه الرثة حتى

تمزقت من كل جانب، يصرخ الجميع بأعلى صوته، كل بلغته حتى أصبح كخرقة بالية لا يدري ماذا يفعل؟! فلا هو بقادر أن يهرب ولا هو بقادر أن يدافع عن نفسه، ولا هو بقادر أن يفهم لغاتهم التي أصبحت لغة جديدة لم تولد بعد نتيجة اختلاط الكلمات والأصوات كالرعد يصم الآذان. استسلم سعد إلى حاله الرث، ممزقًا الثياب والنفس، فألقى بجسده بينهم مترنحًا وهم يدوسونه بأقدامهم وكأنهم يُسَوُّون أرضًا ملأتها حجارة من طين الأحزان.

أغمض سعد عينيه حتى لا يرى هذا القبح والاستهانة بإنسانيته ورجولته وتمنى أن تنسلخ روحه من جسده وتبعد بعيدًا وتترك لهم جسده يفعلون به ما يشاءون. وما كادت عيناه تغمضان لعله لا يرى هذا الضجيج حتى صاح يحك إحدى عينيه نتيجة لسعها من زنبور أحد دبابير النحل التي تحوم حوله في هذا المكان القاصي. فتح سعد عينيه ليجد العالم حواليه خاويًا إلا من شمس تغلق شبابيك أشعتها عن الكون وليل احتل عرشه في الأفق فارشًا أجنحة ظلمته في كل مكان ووجد جسده مستلقيًا على الحشيش الأخضر وقد غشيه النعاس بعد أن أنهى زيارة قبر والديه هذا العصر.

وفجـأة اسـتيقظ سـعد مـن حلمـه ، وتعجـب كيـف يسـترخي الجسـد ويفـور العقـل هكذا ، وكيـف ومـن أيـن يأتـي كل هـؤلاء النـاس بألوانهـم ولغاتهـم وأعمارهـم مـن كل أنحـاء العالـم ليسـكنوا خلايـا عقلـه بهذا التزاحـم كل مسـاء أثنـاء حلمـه الشـيء الـذي لا يمكـن أبـدا أن يحـدث علـي أرض الواقـع. أهـم جـن إختـرق جسـده أثنـاء نعاسـه ولبسـوا نفسـه ، أم هـم أرواح الموتـي علـي مـر العصـور تسـربوا إليـه مـن القبـور حواليـه ليحـذروه مـن البقـاء في هـذه الدنيـا ، أم أنهـم مجـرد أبخـرة لأفـكار العقـل تصاعـدت منـه فتكثفـت علـي هيئـة صـور ثلاثيـة الأبعـاد، أم هـو ضميـره الممـزق بفعـل تعذيبـه وجلـده لذاتـه جـراء أخطـاءه التـي هـي مجـرد مسـلمات وهفـوات للآخريـن. لا أحـد يعلـم ، والوحيـد الـذي قـد يعلـم هـو العقـل ولكنـه لا يبـوح بأسـراره. و لا حتـي لصاحبـه. فعـلا سـر الحيـاة والممـات يسـكن خلايـا العقـل التـي تشـكل لنـا أثنـاء النـوم مـا تريـد هـي وليـس مـا نريـد نحـن دون أن تسـتأذنـا.

لا أحـد يعلـم، والوحيـد الـذي قـد يعلـم هـو العقـل ولكنـه لا يبـوح بأسـراره، ولا حتـى لصاحبـه، فعـلاً سـر الحيـاة والممـات يسـكن خلايـا العقـل التـي تشـكل لنـا أثنـاء النـوم مـا تريـد هـي وليـس مـا نريـد نحـن دون أن تسـتأذننا، فمنـذ لحظـات كان عقـل سـعد مدينـة يعلوهـا الضجيـج والآن أرض فضـاء حافيـة إلا مـن ذكـرى والديـه حيـث جـاء

ليجدد عهده معهما، من أين جاء هؤلاء الناس وأين ذهبوا؟! لا أحد يعلم حتى سعد، فلا عيناه رأتهم من قبل ولا قلبه شعر بهم من قبل.. إنه العقل عندما يأخذ أجازة من الحياة على عجل لملم سعد حاجياته بعد أن وجد نفسه وحيدًا في هذا الليل البهيم الموحش، وما إن وقعت قدماه على بداية الطريق المؤدي إلى البلدة حتى سمع صراخًا وعويلاً من اتجاه البلدة وأكتاف تحمل صندوقًا خشبيًا لا يعلم من يرقد فيه، تعالى النحيب والعويل وهمهمة الرجال التي اقتربت منه فما كان منه إلا أن استدار بجسده وانضم لطابور العرض الذي يمشي وراء الصندوق دون أن يسأل من الراقد فيه، وصل الطابور إلى القبر وانتظر المشيعون بعيدًا حتى تنتهي مراسم الدفن وحملت بعض الأيادي المدربة الجثمان ووضعته في حفرة معدة مسبقًا لهذا الجسد الضخم الملفوف في قماشه الأبيض.

وكأنه تعرف على الجسد سأل سعد أحد القائمين على الدفن، رحمة الله على الميت الذي كان كله وصل وحب للناس، الله يرحمه، نظر الرجل إلى سعد وهو مازال يدس الطين على فتحة المقبرة متمتمًا، ويرحمك الله، ألا تعرف صاحب الجسد يا سعد، لا أعرف لأني كنت هنا في زيارة الموتى بعيدًا عن صخب ظلم الحياة، ولكني أكاد أجزم أني تعرفت على جسده، هو يا سعد، فقد كتب

الله لك اليوم حياة جديدة خالية من ظلمة أو ظلام. حينئذ أدرك سعد من أين جاء الناس في عقله ولمن كان صراخهم وعنفوانهم وطغيانهم في عقله.

دعا سعد بالرحمة والغفران لروح الجسد الذي أهال الرجل عليه التراب وقفل فتحته بالطين، ذهب لينضم للمشيعين فلم يجد أحدًا ينتظر، حينئذ قرر سعد ألا يرحل وبقي يدعو للميت حتى أخر قدم تركت الليل البهيم.

●●●

التنازل عن التمني

«إذا أردت دخـول السباق فيجـب أن تمـرن قدميك على العـدو أولاً».

لكم تمنيت أن أكون أنت يا سمير، درسنا سويًا من الابتدائية حتى الثانوية ثم افترقنا في الجامعة بعد أن دخلت أنت كلية الاقتصاد والعلوم السياسية والتحاقك بالسلك الدبلوماسي بعد ذلك لتصبح سفيرًا لمصر في تلك الدولة التي لا يخطر ببال أحد أن يعمل في السلك الدبلوماسي بها، ولكنك كالعادة كنت محظوظًا ترقيت حتى أصبحت وزيرًا مفوضًا ثم سفيرًا يشار إليه بالبنان، والتحقت أنا بكلية العلوم وتعينت معيدًا ثم تدرجت في الترقيات حتى أصبحت أستاذًا يشار أيضًا له بالبنان، ولكن شتان الفارق بين هذا وذاك البنان، فبنان السياسة أعلى قدرًا وتأثيرًا وقوة من بنان العلم والأستاذية المعنوية التي لم يعد يقدرها أحد فباتت تشعر بالخجل من ملامحها التي كانت يومًا ما تحمل أجمل الملامح على الإطلاق.

ما علينا يا سمير فالماضي قد مضى وما بين أيدينا هو الحاضر وما عليّ إلا أن أعانق الواقع وأمتثل إلى أوامره الفضفاضة. فإذا كنت قد درست كثيرًا وبحثت أكثر وتعلمت أصول البحث العلمي وتطبيقه حتى أصبح لا يُذكر اسمي إلا وتُذكر إنجازاتي العلمية، إلا إني لم أتعلم أصول كسب المال والجاه والسلطان في الحياة، فكم كانت هناك العديد من الفرص لجمع المال وفرص أخرى لتسلق مجد الجاه والسلطان، إلا أني وبجبروتي العلمي تقمصت دور الباحث الناسك الذي يجري وراء أوهام لا تعترف بأدواته ولا كلماته فأصبحت كما أنا وما أصعب من وصف الأنا.

لكم اشتقت إليك يا سمير، وبالافتخار بك وبالاعتماد عليك في إنهاء العديد من الأمور المستعصية عندما تحل علينا بوجاهتك وعظمتك وعنفوان منصبك في أجازة كل عام، وها أنا ذا أنتظر قدومك على أحر من الجمر لكي تساعدني بحق الصداقة في تذليل الكثير من حقوقي المعلقة والتي تحتاج إلى عصاك السحرية التي تفتح كل الأبواب المخبأ وراءها كل الخير، وأنتظر قدومك لكي تشرفنا بالحضور زفاف ابني وأفتخر بك أمام أهل عروسه وأصدقائي وأهلي ونلتقط الصور التذكارية لتخلد تلك اللحظات.

لكـم كنـت أتمنـى أن أكـون مثلـك يـا صديقـي الوجيـه، ليتنـي دخلـت سـلك السياسـة والاقتصـاد معـك لأصبـح في موقـع الصـدارة وعلـى صفحـات الجرائـد وشاشـات التليفزيـون مثلـك، أقـول ليتنـي مـع أنـي التحقـت بسـلك العلـوم بملء إرادتـي فكان بمقـدوري أن أكـون سـفيرًا أو طبيبًـا كبيـرًا أو قاضيًـا معروفًـا ولكنـي أحببـت وعشـقت العلـم والعلـوم والعلمـاء، وفـزت أيضًـا بحـب العلـم والعلمـاء، وهـذا مـا كنـت أصبـو إليـه دائمًـا ليقينـي أن العالِـم هـو مـن تنحنـي لعلمـه الجِبَاه ولكـن رحلـة الحيـاة علمتنـي أن أهـل العِلـم قـد تنحنـي أمـام الجُبـاه، وتعلمـت أن العلـم في بلدنـا حـافي القدمـين وأهلـه عـراة. أقـول أتمنـى أن أكـون مثلـك ولكنـي كـم أعشـق أن أكـون أنـا، فالتمنـي قـد تخلقـه ظـروف الحيـاة ولا يعكـس واقـع مـن يتمنـى منـاه.

لـم يتبـقَ سـوى النصـف سـاعة علـى وصولـك صديقـي العزيـز سـمير بـك، نصـف سـاعة وتكـون أمامـي بوجاهتـك وابتسـامتك العريضـة، وتزاحـم أهـل الإعـلام حواليـك وأنـا أنتظـر بعيـدًا حتـى تنهـي مراسـم وصولـك أرض المطـار اليـوم لتبـدأ أجازتـك السـنوية، لـن آخـذ مـن وقتـك الثمـين كثيـرًا يـا صديقـي فسـوف ألقـي التحيـة مثـل كل مـرة ثـم أضمـك إلـى صـدري وأقبلـك بمشـاعري الصادقـة ثـم أعزمـك لزيارتـي في البيـت ككل مـرة لنعيـد الحكايـات والذكريـات، دقائـق يـا سـمير بـك وأراك ماثـلاً أمـام عينـيَّ في مطـار القاهـرة الدولـي لأفـوز بنشـوة لقائـك مثـل كل عـام.

انتظـر د/ عفيفـي وانتظـر مجـيء سـمير بـك ولكـن لـم يظهـر في صالـة كبـار الـزوار ولا مـع الـركاب العاديـين القادمـين علـى نفس الطائـرة. تعجـب د/ عفيفـي وراح يسـأل عـن رحلـة سـمير بـك، وكانـت المفاجـأة هـو وصـول جثمـان سـمير علـى الطائـرة وبأنـه سـوف ينقـل إلـى أهلـه لتتـم مراسـم الدفـن هنـاك في قريتـه وتحـت إشـراف د/ عفيفـي بنـاءً علـى وصيتـه.

سـال الدمـع علـى خـدَيّ د/ عفيفـي ليـس بسـبب انهيـار سـقف عقـارات أمانيـه ومطالبـه التـي كان يتشـوق أن تتحقـق بفضـل سـمير بـك ولكـن بسـبب تحـول مراسـم اسـتقبال سـمير بـك إلـى مراسـم دفنـه.

هنـا أدرك د/ عفيفـي وهـو يبكـي صديـق العمـر غيـاب أهـل الإعـلام في المطـار وقـد كانـوا كل مـرة علـى أهبـة الاسـتعداد في اسـتقباله، وهكـذا الفـرق بـين مراسـم ومراسـم. وبكـى د/ عفيفـي أكثـر لمـا علـم سـبب وفـاة سـمير بـك مـن المـرض اللعـين السـرطان بعـد أن أنهـك قـواه، وبكـى د/ عفيفـي لأن صديقـه الـذي هـدّه المـرض لـم يسـعه عمـره أن يسـتفيد مـن الـدواء الجديـد الـذي اكتشـفه د/ عفيفـي حديثًـا لعـلاج السـرطان والـذي كان ينـوي مفاجأتـه حتـى يعلنهـا سـمير بـك علـى المـلأ ويدعمهـا عنـد أصحـاب القـرار.

بكـى د/ عفيفـي صديقـه الـذي راح وبكـى دواءه الـذي راح.. وشـهق شـهقة مـلأت جوفـه ترحمًـا علـى صديقـه واتجـه بهـدوء إلـى جثمـان سـمير حتـى يأتـي أقاربـه وهـو يحـدث نفسـه: «هكـذا تولـد وتمـوت الأمنيـات بيـد القـدر» والحمـد لله علـى أنـي لـم أكـن غيـري وأنـي كنـت ومازلـت د/ عفيفـي.

●●●

حلم الرحيل

«يا كل ساكني مدائن الأوطان، تهيأوا وتزينوا فإني عن وطني قررت عدم الرحيل، وأمي هي الوطن».

استيقظ ربيع من النوم على راحة يد أمه تداعب خصلات شعر رأسه التي تبعثرت في كل اتجاه أثناء حلمه الذي عاش فيه ليلة طويلة، اعتادت أمه أن توقظه كل صباح على كلمات حانية حروفها من لغة الحنان ونقاطها مغموسة في عسل أبيض مصفى، كيف لا وهو الابن الأكبر والوحيد المختلف عن أخواته الخمس بأدبه الجم وبنظامه واحترامه لها فكان شغلها الشاغل طوال عشر سنوات بعد وفاة والده، ولكنها أتت اليوم إلى حجرته مبكرًا لتوقظه بعد أن سمعت صياحه ولكنها وجدته صياح حلم كما تعودت منه منذ أسابيع.

صباح الخير يا حبيبي، واضح أنك كنت في حلم جميل وطويل، يا ترى هتحكيه لي دلوقتي قبل ما تنسى ولا لما تفوق، لأ هاحكيهولك قبل ما أنساه لأني حاسس إنها رؤية مش حلم وعايزك تفسريه لي كالعادة بأسلوبك الجميل .طيب مش الأول

تشوف الهدية اللي كان نفسك فيها من سنين، جاكيت بدلة محصلش هدية حصولك على أول عمل وأول مرتب ننتظره جميعًا على أحر من الجمر.

يا أمي أنا كل اللي عايزه رضاكي عني وتدعيلي حتى وأنا بعيد عنك.أنا بدعيلك على طول يا ابني بس إيه حكاية وأنت بعيد عني دي؟ هو ده الحلم يا أمي، هتجيلي هدية حلوة بس من برة وهاروح أستلمها هناك.

طيب ما يمكن الهدية دي هي الجاكيت وهو يا سيدي جايلك هدية من برة توصية مني، الجاكيت عجبني جدًا يا أمي وفعلاً كان نفسي فيه بس حاسس إن الهدية حاجة تانية، حاجة مختلفة، حاجة هتجدد حياتي.

أطلقت الأم نظرها إلا اللا شيء وهي تساعده في ارتداء الجاكيت الجديد لتسعد به وهو يرتديه فكم كان يتمناه وكم عملت المستحيل لتشتريه من دول الخليج بتوصية أحد الأقرباء لترى مفاجأة السعادة في عينيه، همست في نفسها في توجس، مؤكد هناك سر في حياة ربيع وهو الذي ظننت أنه لا يخبئ عني أية أسرار.

ولـم تمـضِ أيـام حتـى جـاء ربيـع المظـروف الكبيـر الـذي كان ينتظـره منـذ عـام ونصـف مـن محبوبتـه عبـر البحـار وبـه الموافقـة على السفر وتأشيرة الهجرة وتذكرة السفر إلى الخارج كما أخبره الحلـم الـذي كان يعيشـه سـرًا في الواقـع.

سـافر ربيـع منـذ عشـرة أعـوام ومعـه الجاكيـت، ولـم تـره أمـه حتـى الآن، ومـن يومهـا قـررت أم ربيـع ألا تحقـق أحـلام أولادهـا الأربـع الباقـين حتـى لا تفقدهـم وهـم علـى قيـد الحيـاة.

●●●

حمى المشاعر

«نبتة المشاعر تحتاج أن تروى بماء العطاء حتى تثمر القلوب عن كلمات حلوة المذاق حين تقطف ثمارها الألسنة».

ارتفعت درجة حرارته حتى شعر وكأنه يتقلب في فرن حراري وخفت صوته ولم يعد يقدر على البوح بوجعه وهزل جسده وكأنه لم يذق طعامًا منذ أيام، استسلم فارس لوهنه وألقى بأوجاعه في جوفه فلم يعد يستطع أن يفتح عينيه من شدة الألم الذي ألم به بفعل الحمى التي تمكنت من أركان جسده النحيل ذي العشرة أعوام. استسلم لنوبات الألم ونوبات الإغماء وحواليه أناس يرق لهم قلبه ولكنه بدأ يبتعد عنهم رويدًا رويدًا حتى غاب تمامًا عن تلك الأجواء ليجد نفسه متحررًا وهائمًا بين السماء والأرض يعلو ويهبط كيفما يشاء وكأنه تحول إلى طائر لا يأبه بالجاذبية الأرضية.

تعجّب فارس كيف له أن يتحول كلية إلى جزيئات دقيقة امتزجت وتغلغلت بين جزيئات الهواء هنا وهناك حتى أصبح في العالم اللامرئي ولكنه قادر على رؤية الأشياء كيفما يشاء وبصورة

أكثـر وضوحًـا فهـو الآن يسـتطيع أن يتغلغـل ليكـون جـزءًا مـن الـكل كالمـاء المنسـاب مـن بـين الصخـور. تعجـب كيـف لـه أن يتحـول في مادتـه كلمـا أراد وكيـف أنـه لـم يعـد جسـدًا كامـلاً كمـا تعـود أن يـرى نفسـه، هـو الآن لا يـراه أحـد ولكنـه يـرى الجميـع بـأدق التفاصيـل.

وقبـل أن يـزداد تعجبـه وتـزداد حيرتـه فوجـئ فـارس بجزيئاتـه تتحـول إلـى حزمـة دائريـة تتصعّـد في السـماء تسـابق الريـح حتـى عـرج هنـاك عنـد مفـرق الشـمس، وفجـأة تحولـت جزيئاتـه إلـى جسـد في أحسـن وأجمـل تقـويم، ووجـد إحـدى قدميـه تسـتند علـى حافـة الشـمس المتوهجـة والأخـرى تسـتند علـى حافـة القمـر المضيـئ وراحـت كفيـه تسـتند عليهـا النجـوم المتلألئـة.

تعجـب فـارس كيـف لـه أن يصيـر جسـدًا كونيًـا كهـذا ولا تحرقـه الشـمس ولا صخـور القمـر وقسـوته ولا تثقـل عليـه النجـوم بأوزانهـا، كيـف لقدميـه وراحتيـه أن تكـون جـزءًا مـن هـذا الكـون الفسـيح، وازداد تعجـب سـامح كيـف لا تحرقـه أشـعة الشـمس وتذيبـه حرارتهـا ليتلاشـى ويصيـر رمـادًا في بطـن الشـمس. اضطـرب قلـب سـامح وازدادت نبضاتـه وهاجـت أنفاسـه وتحشـرجت روحـه خوفًـا مـن حَـرُور الشـمس أن تحرقـه ومـن القمـر أن يمـور بـه ومـن الكواكـب أن تخُـر علـى راحتيـه ليسـقط وللأبـد.

وهـو هـائـم ﰲ تعجبـه وخوفـه فوجـئ فـارس بقـرص الشـمس يبعد رويـدًا رويـدًا والقمـر والكواكـب حواليـه تتباعـد وتتباعـد ونبضـات قلبـه مازالـت مضطربـة مـن الخـوف، وفجـأة وجـد فـارس وجوهـًا مضيئـة ضـاحكة كلهـا أمـل تطـل مـن الشـمس والقمـر والكواكـب فتـح فـارس جفونـه علـى أصـوات حانيـة حواليـه تنـادي عليـه لتطمئـن بأنـه الآن بخيـر، فتـح فـارس عينيـه ليجـد يـد أمـه ممسـكة بكمـادات علـى جبهتـه وأبـوه يضمـد بهـا حـرور قدميـه وأخواتـه تمسـك بأنابيـب محاليـل التغذيـة وهـي تتدلـى مـن عـروق سـاعديه.

ابتسـم فـارس ملوحـًا بيديـه الواهنـة لوالديـه وأخواتـه فقـد كانـت الشـمس وجـه أمـه والقمـر وجـه أبيـه والنجـوم وجـوه أخواتـه، حمـدًا لله علـى السـلامة يـا فـارس، واضـح أنـك كنـت ﰲ حلـم كبيـر، نعـم والـدي وكنتـم معـي هنـاك نحتسـي سـويًا أشـعة الشـمس وضـوء القمـر ولألأة الكواكـب فمـا أحلـى الحمـى عندمـا تخـرج أحلـى مـا لدينـا.

●●●

فرحة الحزن

«كن في عيون الناس فرحة ولو سكن في عيونك مشروع دمعة».

لم يدرِ شمس بنفسه إلا وهو أمام باب الخروج الزجاجي للشركة، فاغرورقت عيناه بدمعات قليلة جفت في مقلتيه قبل أن تتساقط على وجنتيه، فوقف على بعد أقدام من الباب مرة وكله حيرة من أمره ماذا يفعل الآن؟! فمرة يقدم رجلاً ويهم بالخروج ومرة يؤخرها هروبًا من الخروج من هذا الباب الذي يفصله الآن بين الماضي الذي عاشه بكل واقعه الجميل وأمنياته العريضة وبين المستقبل المجهول الذي ينتظره خارج هذا الباب الزجاحي الذي يفتح أتوماتيكيًا ولا يتطلب فتحه سوى الوقوف أمامه على بعد مسافة قدم أو قدمين، فكل مرة يهم شمس بالخروج ينفتح الباب تلقائيًا ثم ينغلق عندما يتقهقر للخلف، نظر شمس إلى الباب بتأمل وحيرة، مجرد باب زجاجي ولكنه يمثل لشمس الآن خط بارليف المانع الذي يجب عليه أن يعبره الآن وللأبد، ولكن مازال التردد يسيطر على شمس وكأنه نفسه أصبح من زجاج قابل للكسر، أجمع شمس قواه وقرر الخروج بعد أن أغمض عينيه

حتى لا يرى الباب وهو يقفل وراءه وكأنه يلطمه لطمًا على خديه وكل جسده.

وما إن اتخذ موقف الهجوم للخروج من هذا الباب الزجاجي الملعون الذي طالما شهد معه الابتسامات العريضة والتحيات التي يوزعها على الداخل والخارج كأنه الفارس المغوار صاحب هذا المكان ومن يعمل فيه حتى فوجئ بمن ينادي عليه بصوت عال يغلفه ضحكة مملوءة بمعاني كثيرة لا يدركها إلا شمس الآن والآن فقط، إزيك شمس، إلى أين ذاهب يا عزيزي؟ هل حان وقت الرحيل؟ نعم د/ سمير حان وقت الرحيل، ووقت التغلب على الماضي بكل ما كان فيه، ولكني أجدك واقفًا هكذا منذ دقائق بدون حراك، هل أصابك مكروه أو تريد مساعدة؟ لا يا زميلي العزيز كنت فقط أتأهب للخروج ثم شممت رائحتك قادمة من بعيد ورأيت ضحكتك التي تحمل كل ألوان الطيف لتغيرها كيفما وأينما يحلو لك المقام فقررت أن أنتظرك حتى تخطو الباب إلى الداخل وأخطوه أنا للخارج ليذهب كل إلى طريقه.

والابتسامة مازالت معلقة على شفتيه وكأنه يحركها لريموت كنترول، رائع سيدي ولكن طريقي معلوم فماذا عن طريقك أنت بعد أن تتخطى هذا الباب الجميل؟ الباب فعلاً جميل بمن يمر

من خلاله فإذا كان هو وسيلة خروجي من هنا فهو أيضًا وسيلة دخولي إلى عالم أخر أكبر وأوسع، عمومًا أتمنى لك خروجًا محمودًا وسعيًا مشكورًا حتى أراك يومًا ما في مكان ما على ظهر هذه الأرض الواسعة التي تبتلع الهائمين، ولك كذلك، ومن يدري كيف وأين ومتى اللقاء ومن سيحدد اللقاء؟!

لم يعد أمام شمس إلا أن يتخطى الباب الآن على الأقل هروبًا من هذا اللسان السليط والشفاه المتلونة والفكر الانقلابي. وبالفعل خرج شمس بسرعة فائقة قبل أن يسترسل سمير في الحديث. انغلق الباب وأصبح شمس حرًا في الخارج وسمير يرتع بالداخل يجدد نشاطه مع زبائن له آخرين على قائمة الوجبات التي يتلذذ بطهيها بنفسه على نار الانقلابات الهادئة بلسانه المعسول وشفتيه الملوثتان بأعراض ضحاياه وعينيه اللتان يرميان شباكهما على عقول المجذوبين من رؤسائه العاشقين لطعم وجباته البشرية.

وقف شمس خارج الباب لا يدري إلى أي اتجاه يسير؟! إلى اليمين حيث صديقه الحميم الذي فرَّقت بينهما انشغالات الحياة أم إلى اليسار حيث زوجته وأولاده وباقي عائلته؟! لم يتردد كثيرًا في اتخاذ اتجاه اليمين ليجد نفسه بعدما يقرب ساعة من المشي المتعمد أمام بيت صديقه د/ عمار، لحسن الحظ فتح عمار

الباب بعد دقات قليلة ليجد شمس بشحمه ولحمه واقفًا أمامه في بدلته السوداء وقميص أبيض يزينه رابطة عنق بلون رائع ينم عن بساطة شمس المالية. أهلاً بك شمس، لا أصدق نفسي يا صديقي أنك أمامي الآن، إنها مفاجأة رائعة بكل المقاييس، والأجمل أن أجدك بعد كل هذه السنين كما أنت لم تتغير كثيرًا سوى هذا الشعر الأبيض الذي يزين وجهه الهادئ وملامحك المقبلة دائمًا على الحياة برضاء تام.

قضى شمس أمسية رائعة مع عمار ومع أن عمار لمس همسة حزن تقارب الانكسار في كلمات شمس إلا أنه لم يشأ أن يسأله في أول وهلة عن سر هذا الإحساس، وقبل أن يرمي عمار بسؤاله الغير مباشر على شمس ليفهم ماذا هناك؟! فاجأه شمس بسؤال أربك عقله وسحق صفاء الجلسة الحميمة، عمار، هل تساعدني في إيجاد عمل أيًا كان هذا العمل ولكن في أقرب وقت ممكن؟ لم يصدق عمار أذنيه وهو يسمع هذا السؤال من شمس الذي وقع عليه كطلقة نارية معبأة بكل المفاجآت، ماذا حدث شمس؟ أنا أتابع أخبارك في الجرائد والتلفاز وأعدك من كبار الإداريين في سوق المال ورجال الأعمال، هل تهزر معي أم هذا مؤكد سؤال؟ بالفعل هو سؤال عمار، أنا في حاجة لعمل اليوم قبل الغد فقد تركت العمل أو تستطيع أن تقول تخلى عني العمل

اليوم، لا تشغل بالك يا صديقي فسوف أعمل ما بوسعي لإيجاد عمل في أسرع وقت ممكن.

ترك شمس عمار على أمل سماع أخبار سارة وعاد إلى أهل بيته دون أن يخبرهم عن الأمر.ً

دلف إلي حجرتة بهدوء حتي لا تشعر به زوجته نادية التي تنام في حجرة أخري وأولاده الأربع وقلما أن يتلاقيا منذ ما يقرب من عامين إلا علي العشاء في أيا الأجازات أو نهاية الأسبوع. و ما أن لمست قدمه أرض غرفته حتي ألقي بجسده في سريره وتنفس الصعداء بعد هذا اليوم المرير. حاول شمس أن يلقي عقله علي جانبه الأيمن وقلبه علي جانبه الأيسر لينام في هدوء بعيدا عن الأفكار التي تهاجمه بسكين البطالة والنفي من وظيفته التي طالما كان يتفاخر بها أمام أصدقائه وأمام زوجته وأقاربه وحتي أولاده. ولكن للأسف لم يستطع شمس أن ينام فقد شعر بأنه ينام علي وسادة من المسامير التي صنعها العالم حتي يومنا هذا. خاف من شماتة زوجته وأهلها ونظرات الشفقة من أولاده والتشفي من أصدقائه، خاف من إنكساره وإنحناءه أمام الجميع. لم يستطع أن ينام إلا بجرعة منوم قلما كان يتناولها إلا عندما تتكالب عليه ليلا مشاغل العمل ومشاريعه وطموحاته. نام شمس نوما إكلينيكيا لم يفق منه إلا مساء اليوم التالي.

إمتلأ البيت بحركة دؤوبة وغير عادية من الأم والأولاد ، ولم تذهب نادية إلي العمل الذي طالما إنقطعت عنه إلا نادرا بسبب نزلة مرض أو أمر عضال. تحول البيت إلي خلية نحل ملكتها نادية والشغالين هم أولاده أحمد وأدهم ونيروز ونهاد يحاولون أن يصنعوا عسلا مصفي في كل ركن من أركان البيت. الملكة تدري ماذا تفعل والأولاد لا يدرون السر وراء عدم ذهابهم اليوم للجامعة بأمر من الملكة ومكوثهم في البيت في مساعدتها في ترتيب وتجميل كل شيئ بأنفسهم ، وهم قلما أن يفعلا ذلك ولكنهم علي أية حال إنتابتهم فرحة مكتومة لم يدروا سببها يحوطها قلق لا يخفي لا يدروا سببا وراءه ولكن إنفصال الوالدين يغلف قلقهما بشدة.

وغابت الشمس ورحلت وحلت تباشير المساء وأصبح البيت وكأنه في إنتظار حدث ما لا يدري عنه الأولاد شيئا ، ولكن الأم وحدها تعلم. لم تظهر نادية علي ملامحها أي علامة للإنبساط أو الكآبة قد يستشف الأولاد منها ىشيئا ، ولكن بدت بملامح جادة التي يسكن في كل ركن فيها الجمال في صمت ووقار مع إبتسامات تهرب من ملامحها تتسكب من شفتيها من حين لآخر. وأصبح البيت وكأنه بيت آخر علي أهبة الإستعداد لحدث أو حفل لا يدري أحد ما هو إلا الأم ومن يدري فقد يعلمه أيضا الأب النائم في حجرته أعلي منذ أمس كما أخبرتهم نادية عند الظهيرة.

تقلب شمس في سريره وفرك عينيه ليجد نفسه نائما وسط سريره في ضوء الغرفة الخافت وعندما نظر إلي ساعة الحائط والتاريخ أدرك أنه نام يوما كاملا بلا حراك. إنزعج شمس جدا عندما لم يجد أي مكالمة علي تليفونه الذي طالما كان يشتكي من مئات المكالمات اليومية. عقد حاجبيه وذم شفتيه وألقي التليفون بعيدا و ذهب ليأخذ حماما ويغير ملابسه ويقصد صديقه عمار لعله يجد أخبار تسره قبل أن يقابل نادية والأولاد ويري في أعينهم الشماتة والشفقة، وفي قلبه شعور الإنكسار وفي عقله طعم الهزيمة. سيطر علي فكره كم واتت نادية فرصة عمرها الآن لتتشفي فيه بعد هذا الهجران المتعمد منه نتيجة خطأ تافه منها وتأسفت عليه ، خطأ وأسف قد يستخدمه غيره وسيلة للإستحواذ علي قلب زوجته وعقلها بإبتسامة وقبلة وحضن مقابل الإعتذار. ولكنه كان الكبر و الهوي الذي يبحث عن سبب ليتنفس وحيدا بعيدا عن أسوار البيت ليعيش طليقا بين أحضان أرباب العمل الذي صعد فيه إلي النجومية. وغرب شمس عن نادية منذ ذاك الخطأ الذي وقعت فيه وأصبحت العلاقة بينهما ليلا مظلما بالرغم من محاولات نادية المتكررة من إضاءة هذا الليل بأضواء محاولات متكررة منها ولكن باءت كل المحاولات بالفشل فانطوت علي أولادها وجعلت منهم شمسها ونهارها بعيدا عن ليل شمس المظلم حتي يشاء الله وتتحرر منه.

إستغرب شمس من المظهر الذي بدت به غرفته وانتابه نفس الشعور عندما دخل الحمام ، كل شيئ مختلف ، هناك لمسة ما في حجرته، لمسة نسائية جعلت كل شيئ يبدوا مختلفا وجميلا ورائعا . أسرع و خرج من حجرته ليطل من أعلي علي باقي البيت في الطابق الأول ليفاجئ بترتيبات مختلفة ومظهر مختلف ولكن يبدوا أيضا الوقار والجمال والأناقة في كل ركن. إستغرب شمس وبدا القلق يسيطر علي قلبه وعقله، أتكون نادية قد علمت بما حدث له في العمل وأرادت أن تكون شماتتها مبكرة ومدبرة ومرتبة كما يبدوا . أتراها دعت أهلها علي العشاء وسط الأولاد وفي وجودي لكي تعلن أمامهم خبر الموسم من تركي للعمل أو طردي منه كيفما يحلوا لها . لا ، لن أترك لها هذه الفرصة كما تركت لها الفرصة من قبل لتخطأ ثم تركت لها الفرصة لكي تستمر في عملها حتي أصبحت تملك أشهر أتيليه لإكسسوار وملابس السيدات أصحاب الذوات حتي أصبحت معروفة بينهم بمدام شمس بك. لن أترك لها هذه الفرصة اليوم كما تركتها كل مرة، سوف أتصل بسامح وأدعوه ليأتي ليكون كل شيئ أمامه ومن يدري لعلي أسمع منه خبر سار يعفيني عن كل هذا الذل والهوان أمام أقرب الناس.

جري شمس وطلب سامح الذي رد علي الفور وأخبره بأنه علم كل شيئ دبرته نادية اليوم وأنه قادم الأن ليكون هناك. كيف علم

سامح، ألهذا الحد الترتيبات متقنه حتي تسمح لأهلها وأصدقائي أن تكون مراسم الإنتقام أمامهم، ومن يدري لعلي أفاجئ بأهلي أيضا قادمون لتكون الفضيحة الكبري. وبسرعة طلب أكبر أخواته الستة الذي رد عليه كما رد سامح، وهنا ألقي بجسده مرة أخري وسط نفسه يفكر ولكن وقف تفكيره عند حد الإنتقام وكسر ذراع كل التدبيرات. شحذ سكين عقله ليكون جاهزا بأفكار تقطع ، وضبط إيقاع نبضات قلبه علي إيقاع الغضب وانتظر في غرفته حتي لحظة المواجهة التي لم يحسب فيها وجود أولاده ومدي تأذيهم مما سوف يحدث أثناء تلك المواجهة ، ولكنه فكر فقط في لحظة رد الفعل ليكون رد فعله الشمس الحارقة كما تعود منذ سنتين.

سمع أصوات جلبة آتية من الطابق السفلي فانتفض قلبه وعقله عندما سمع اسمه علي ألسنة من قدموا ، وخرج حثيثا لينظر من شرفة الكرودور وهو يرتدري البدلة السوداء والقميص الأبيض والببيون الأزرق الداكن وكأنه علي موعد عمل هام. وما أن طل من الشرفة حثيثا حتي قابلته عاصفة من أصوات الأولاد والأهل وتتوسطهم نادية وبينهم سامح تردد بعيد ميلاد سعيد شمس. إستغرب شمس مما يجري هناك ، وحدق بعينيه في الجميع ليتأكد أنه واع وأن مايري ليس هلوثة أقراص النوم الذي

بلعها أمس. ولكنه أفاق علي الإبتسامات والضحك وتلويح الأيدي بأن ينزل ليحتفلوا بعيد ميلاده الستين وزواجه الثلاثين. عيدان تعودا شمس ونادية أن يحتفلا بهما كل عام وسط الأولاد والأهل والأصدقاء، عيدان تعمد شمس ونادية أن يأتيا سويا في يوم واحد لما خططا وصمما أن يكون الزواج يوم عيد ميلاد أحدهما وقد كان شمس وكم ترجم إحتفالهما السنوي بعيدي الميلاد والزواج قصة حبهما الرومانسية التي كانت مصدر حسد العزال حتي قبل عامين من الآن.

سحب شمس سكاكين عقله إلي جرابها وضبط إيقاع قلبه علي فرحة كان يتمناها منذ عامين طوال ، وجري مسرعا علي السلالم ليفاجأ بنادية قادمة اليه ليتقابلا في منتصف الطريق علي سلالم البيت الذي بدا وكأنه ينتظر فرحة زواج. لم يدري شمس إلا ويديه تطوق خصر نادية التي ارتمت برأسها وصدرها في أحضانه معلنة إستسلام العاشقة لزوجها وملقية صهد عذاب الإشتياق طيلة العامين تذوب بين شفتيه أمام الأولاد والحاضرين وكأنهما مراهقين تزوجا بدون خطوبة أو عقد قران.

مشي شمس ناحية تورتة عيد الميلاد والزواج ونادية بين ذراعيه متبخترا ومتباهيا بحبها وبرجولته التي تنام بين أنفاس

نادية وشبابه الذي استيقظ من مرقده لينموا من جديد بعيدا عن إنتقام أخطاء الزمن. أمسك شمس بيد نادية ليقطعا التورتة الكبيرة ونزل بسكينه رويدا رويدا وقلبه يخفق من الفرح حتي توقفت السكين فجأة عندما وصلت إلي منتصف التورتة ليفاجأ بعلبة أسطوانية في غاية الروعة والجمال. وقفت السكين عند العلبة المزرقشة، و أمسكت نادية بالعلبة وأعطتها بقبلة لشمس الذي إلتقطها بقلب يرتجف من وسط قبلة نادية وفتحها والصمت عنوان المكان إلا من موسيقي عمر خيرت الهادئة الرائعة دارت الأيام.

فتح شمس العلبة والتقط ما فيها وهو في قمة الإثارة يغلفها إبتسامة قلقة تريد أن تهدأ علي شفتيه. فَرَدَ شمس أول ورقة المعقودة بفيونكة زرقاء جميلة وقرأها ليجد مكتوب عليهه أحبك طوال العمر وأحبك بعد العمر ، التوقيع زوجتك نادية. وتحت الإعتراف بالحب وجد ورقة عقد زواجهما بعمره الثلاثين. انفرجت أسارير شمس وشعر وكأنه يمتطي ظهر طاووس الحب وهو يحيط خصر نادية بذراعه بحنان . وإلتقط الورقة الأخري ليجد فيها عقد شراكة بإسمه وإسم نادية يعود تاريخه إلي عامين فلم يصدق شمس عينيه فاحتضن نادية بحنان شديد وضمها إليه كطفلة ذو عشرة أعوام. لم يقدر شمس علي إحتمال ما يري،

فتساقطت دمعات من عيونه لم يرد أن يجففها أو نادية التي همت بأن تجففها بيديها، ولكنه أبي حتي تكون دموعه المتساقطة رمز للإعتذار عن كبرياءه الذي أوقف سريان الحب بينه وبين نادية طوال عامين.

وفي وسط هذه الأخبار السعيدة التي ملأت قلبه بالفرحة ليس بعقد الشراكة ولكن بعقد الحب الذي جددته نادية بينهما، إقترب سامح من شمس ليعلن له عروض عمل كمستشار من ثلاث شركات إستثمار كبيرة. انتشي شمس وشعر بأنه الآن الحبيب والزوج والأب والصديق والرجل الذي لم ينكسر ولم تنقطع عنه الأوصال.

وهو يحيطها بذراعيه ويحملها علي صدره كطفلته المدللة ، سألته نادية لمن كل هذه الأناقة التي ترتديك اليوم حبيبي. رد شمس والإبتسامة تغازل ملامحه وتتدغدغ مشاعره ، هي لكي أنتي وحدك حبيبتي فقلبي كان يشعر اليوم بأنه قادم علي حدث كبير فتهيأ له جسدي دون أن أدري. لكي أنتي وحدك يا صاحبة المشوار الطويل. آسف حبيبتي علي أخطائي وعلي نسيان عيد الميلاد وعيد زواجنا. شكرا جدا حبيبتي ، أحبك جدا زوجتي.

وقد كان يوم العمر للزيجة الثانية بدون عقد بين الأولاد والأهل والأصدقاء.

●●●

جائزة الابن المثالي

«لا تقرع الطبول فقط لشن الحروب، ولكنها تدق أيضًا لسلام القلوب».

استيقظ الأستاذ صبري في الصباح الباكر كعادته التي لم تنقطع طوال خمسة وثلاثين عامًا هي عمر سنوات عمله موظفًا في مصلحة الضرائب وسنوات الغربة في دول الخليج ليحسن من الوضع المالي لأسرته التي وهبها حياته لإسعادها بكل الوسائل التي حرص ليل نهار على تحقيقها، وقبل أن يحتسي فنجان القهوة الذي يبدأ به يومه دق بهدوء وكعادة كل صباح غرفة ابنه نبيل ليوقظه وعندما لم يرد دلف إلى الغرفة ودلك بكف يده رأس نبيل بحنان بالغ محاولاً إيقاظه، تقلب نبيل في فراشه الدافئ ولم يكلف نفسه حتى النظر لوالده وأشاح بيده من تحت الغطاء ولم يرد، تركه والده ولسان حاله يدعو له بالهداية والتوفيق وإيجاد عمل ينتشله من هذا الفراغ.

أكمل برنامجه اليومي المعتاد ودق على غرفة ابنته سميرة والتي قابلت دقات يديه التي تحفظها بنداء من صوتها العذب

ليدخل. احتضن فيها شعور البنوة الذي لا يتغير مهما كبرت واحتضنت فيه مشاعر الأبوة التي تزداد كلما كبر وكبرت. صباح الخير دادي، يا أحلى داد في الدنيا. صباح الخير حياتي، هعمل الفطار على ما تجهزي. ميرسي دادي حبيبي، وقبلت جبينه ويديه ونهضت كالفراشة.

وبكل همة ونشاط كعادته كل صباح، خاصة كصباح اليوم بشمسه الساطعة وهوائه الدافئ في منتصف فصل الشتاء، ترك الأستاذ صبري يديه تتعامل مع أدوات المطبخ كعازف ماهر يخرج بها أطيب وألذ الوجبات من أقل المكونات تمامًا كما تضرب على يد زوجته التي أصرت أن تعلمه الطهي في الفترات الأخيرة من حياتها وأثناء مرضها؛ وبسبب حبه لزوجته وحبه لخدمة أولاده أحب الطهي وأتقن الوجبات التي يفضلها أولاده فقط ليجعل بيت الأسرة وكأن صاحبته لم تفارقه محاولاً أن يكون أبًا مثاليًا.

السفرة تبدو شهية بأطباق الإفطار التي صنعتها أيدي، قبلت سميرة يديه وأمطرته بالأخبار السعيدة عنها لتملأ عليه أوقاته بالبهجة وتعوضه انفلات عقوق نبيل وكسله وعدم مراعاته لحقوق الأم التي ماتت ولا والده الذي مازال على قيد الحياة أمام عينيه؛ ولأن سميرة تدرك جيدًا مدى تأثر والدها بسلوك نبيل خاصة

وأنـه ابنـه الوحيـد وخاصـة بعدمـا خـرج علـى المعـاش أمـس، جلسـت بجانبـه كالطفلـة المدللـة مـرة تمـدح ـ في الأطبـاق وتـارة تمـدح ـ في طريقة التقـديم وتـارة تضـع لقيمـات بيديهـا ـ في فمـه ومـرة تحادثـه ـ في أمـوره الخاصـة بمـرح، ولـم تشـأ سـميرة أن تتعـرض لخبـر المعـاش ومـاذا هـو بفاعـل بعـد توقفـه عـن العمـل الـذي كان يمثـل لـه كل الحيـاة؟

لاحظـت سـميرة أن والدهـا يرتـدي ملابـس الخـروج ولكنهـا لـم تسـأله، بـل طلبـت منـه أن يوصلهـا للبنـك الذي تعمل بـه ولكنها فوجئت بـه يخبرهـا بأنـه ذاهـب للعمـل كعادتـه. وعبثًـا حاولـت أن تثنيـه عـن فكرتـه، ولكنهـا طاوعتـه يفعـل مـا يشـاء طالمـا يدخـل السـعادة علـى قلبـه، نظـر علـى نبيـل مـرة أخـرى ـ في غرفتـه لعلـه يسـتيقظ قبـل أن يتـرك البيـت ولكـن بـلا جـدوى، قبَّـل جبـين سـميرة ولـم يشـأ أن يخبرهـا بأنـه ليـس لديـه هـدف محـدد ولا يـدري إلـى أيـن هـو ذاهـب وأنـه اختلـق فكـرة ذهابـه للعمـل حتـى لا تقلـق عليـه. نـزل إلـى الشـارع وحـال ابـنه نبيـل يسـيطر علـى فكـره أكثـر مـن تقاعـده علـى المعـاش.

تـرك الأسـتاذ صبـري قدميـه تأخذانـه إلـى حيـث تريـد وفرصـة لـ يفكـر ـ في الأسـباب التـي جعلـت مـن نبيـل ابنًـا عاقًـا هكـذا، ذهـب بعقلـه إلـى الـوراء منـذ أن كان نبيـل طفـلاً وكـم كان يمثـل محـور اهتمـام الأسـرة ولكـن للأسـف اهتمامًـا لـم يجعـل منـه رجـلاً بـل خلـق فيـه طفـلاً كبـر داخلـه مـع الزمـن، وتذكـر كـم كانـت أمـه تجعـل

منـه أميـرًا ويجعـل هـو منـه ملـكًا ولكـن وللأسـف لـم تخلـق منـه هـذه المشـاعر سـوى خفيـرًا وعاقًـا، لـم يكـن أسـتاذ صبـري يـدرك أن حـال نبيـل سـوف يسـتحوذ علـى فكـره هكـذا أكثـر مـن تفكيـره في إحالتـه إلـى المعـاش، تنهـد أسـتاذ صبـري محـاولاً وجـود عـذر: حقًـا قـد يحـول الانشـغال بالعمـل بـين الأب وأحـوال أولاده،. ابتسـم في نفسـه حقًـا :كمـا للمعـاش مواجـع إلا أنـه يفتـح صفحـة بيضـاء جديـدة لمزاولـة المعـاش الحقيقـي بـين الأب وأبنائـه، ومـن يـدري لعلـه سـمي بالمعـاش لهـذا السـبب.

اسـتمر في سـيره والأفـكار تحاصـره حتـى دارت رأسـه بـالأرض ولـم يـدرِ أسـتاذ صبـري بنفسـه إلا وهـو أمـام المسـجد فتوضـأ وصلـى ودعـا اللّه لنبيـل بالهدايـة، سـأل إمـام المسـجد عـن حـل لحـال نبيـل مـن القـرآن والسـنة فألقـى عليـه الشـيخ بالعديـد مـن الآيـات، توقـع أن يحصـل مـن الشـيخ علـى روشـتة دينيـة وعمليـة تعالـج ابنـه فلـم يجـد عنـده إلا روشـتة مـن دعـوات يحفظهـا الأسـتاذ صبـري جيـدًا فتـرك المسـجد حامـلاً همـوم ابنـه علـى كتفيـه التـي لـم يجـد لهـا حـلاً حتـى الآن يخـرج بـه العقـوق مـن صـدر نبيـل ويهلـك الـلا مبـالاة التـي عششـت في عقلـه.

وقعـت عينـا الأسـتاذ صبـري علـى إعـلان كبيـر عـن احتفـال لـلأب والابـن المثالـي، تعجـب مـن هـذا الإعـلان فهـو لـم يسـمع عـن احتفـال كهـذا مـن قبـل، فـكل مـا يعرفـه هـو احتفـال الأم المثاليـة، زاد

الإعـلان مـن همومـه فـلا هـو أب مثالـي كمـا كان يظـن ولا ابنـه ابـن مثالـي كمـا هـو واقـع فكلاهمـا انعـكاس لـدى مثاليـة الآخـر، رمـق الإعـلان بدمعـة في عينيـه وحسـرة في قلبـه ومشـى بعيـدًا لكـي يهـرب منـه وكأن الشـارع يعاقبـه هـو الآخـر كمـا عاقبـه التقاعـد، ازداد دوار رأسـه ولـم تعـد قدميـه تتحمـل ثقـل جسـده ولا ثقـل همومـه فتوقـف عنـد الكافيـه الـذي تعـود قضـاء بعـض أمسـياته فيـه ورمـى بجسـده المنهـك علـى أول كرسـي قابلـه.

لمـا رآه النـادل علـى هـذا الحـال جـاءه مسـرعًا ومعـه كوبًـا مـن المـاء وعصيـر البرتقـال ولـم يتركـه حتـى اطمـأن عليـه، ثـم جـاءه عـم صابـر ماسـح الأحذيـة كمـا يناديـه رواد الكافيـه ليحييـه وجلـس تحـت قدميـه ليمـدد الأسـتاذ صبـري لـه حـذاءه لتلميعـه كالمعتـاد، ولكـن لـم يمـد الأسـتاذ صبـري حـذاءه مـن شـدة الإجهـاد، فنهـض عـم صابـر مـن علـى الأرض وجلـس بجـواره ليطمئـن عليـه وعلـى أحوالـه.

كل ده يـا أسـتاذنا علشـان طلعـت علـى المعـاش، ده أنـت لسـه بصحتـك وممكـن تلاقـي شـغل كثيـر، ده حضرتـك سـيرتك زي البرلنتـي ومعارفـك كثيـر.

أنـا اللـي تاعبنـي أكثـر مـن المعـاش يـا عـم صابـر هـو حـال ابنـي نبيـل، لـم يتغيـر حتـى بعـد مـا بقـى عمـره ٢٧ سـنة وهـو الابـن الوحيـد، بـص هنـاك يـا عـم صابـر شـوف الإعـلان اللـي هنـاك ده بيقـول إيـه؟!

ما أنت عارف يا أستاذ صبري إني مش بعرف أقرأ، إيه اللي مكتوب فيه قولّي بس وما تزعلش.

هو إعلان يا عم صابر عن حفلة كبيرة للأب المثالي والابن المثالي. تخيل بقى جاي على الوجيعة عليَّ وعلى ابني مرة واحدة زي المعاش ما جالي النهاردة كمان.

بس حضرتك أب مثالي فعلاً يا أستاذ صبري، ليه ماتقدمش وإن شاء اللّه يختاروك وتكسب جائزة الأب المثالي.

ماينفعش يا عم صابر، مافيش أب مثالي من غير ابن مثالي ومفيش ابن مثالي من غير أب مثالي، هي كده يا عم صابر، الإعلان ذبحني وعرفني نفسي بعد العمر ده كله إني مش أب مثالي وأنا اللي متخيل إني مثالي.

بس أنت عملت اللي عليك يا أستاذ صبري والكل يشهد بكده والدليل بنتك الأستاذة سميرة متفوقة ومؤدبة وابنة حنونة، الغلط عند ابنك الأستاذ نبيل مش عندك، بلاش تزعل نفسك يا أستاذ صبري ولا ده من تأثير المعاش.

لأ يا صابر المعاش هو اللي فوقني والإعلان ده اللي فوقني أكثر، وحتى لما سألت شيخ الجامع عن حل عملي ما أخدتش منه إلا دعوات وبس، ولو كان على الدعوات كان زمان ابني صحابي رضي اللّه عنه.

ضحك عم صابر من تشبيه الأستاذ صبري، ثم بادره طيب وإيه رأيك في اللي يديك الحل، صحيح أنا مش شيخ جامع ولا دكتور ولا فيلسوف ولا حتى متعلم، بس عندي فكرة حلوة ومين عارف يوضع سره في أضعف خلقه.

أبدًا يا عم صابر أنت من أحسن الناس وأنت عارف قد إيه بقدر فكرك، قولي على فكرتك.

شوف يا أستاذ صبري، معظم أسباب عقوق الشباب بوالديه وخاصة اللي زي نبيل الدلع والفلوس والكسل، ومن شب على شيء شاب عليه وده اللي حصل معاه ولكن برضه الطبع بيغلب التطبع وطبع ابنك أكيد كويس لأنه ابن ناس والدليل حضرتك ووالدته الله يرحمها وأخته اللي مفيش زيها. إيه رأيك لو نطبَّع الأستاذ نبيل على طبعه لحد ما يطِّبَّع عليه ويبقى طبع وتطبع.

نظريتك معقولة يا عم صابر وفلسفية حقيقة ولكن تتحقق إزاي؟ ده عنده ٢٧ سنة وصعب يتغير.

لأ يا صبري بيه، الأستاذ نبيل لسه صغير وإن شاء الله فكرتي مع الدعوات مع مجهود منك ومن أخته هيتغير، إنما الدعوات لوحدها أو مجهودك لوحده حتي لو مع الدعوات مش هيعمل أي حاجة، هو الإعلان ده هيخلص إمتى والحفلة إمتى علشان تلحق تقدم لو فكرتي نجحت ويبقى لي الحلاوة.

أنا الحفلة ما تهمني يا عم صابر، هو الإعلان بس اللي فوقني كأنهم عايزين يقولولي فوق مفيش ابن مثالي من غير أب مثالي ومفيش أب مثالي من غير ابن مثالي، عمومًا قولِّي على فكرتك مين عارف، ربنا كبير يا فيلسوفي.

ابتسم عم صابر ونهض وأشار إلى الإعلان، بص يا أستاذنا بدل ما يبقى إعلان وتقديم نخليه إعلان عن مسابقة بفلوس وتقديم، والجائزة المالية كبيرة ومعاها سفر برة وكمان وظيفة، كده ممكن تجذب نظر الأستاذ نبيل ويتحمس ليها على الأقل علشان الفلوس والسفر حتى لو اتظاهر إنه اتغير وهو متغيرش، بس أكيد هتأثر فيه.

تعجب الأستاذ صبري من الفكرة الذكية لعم صابر، فكيف لاحت له هذه الفكرة والحبكة الدرامية التي لم يهتدِ لها عقله، أعجبته الفكرة ولكنه لا يدري بعد كيف يتم تنفيذها؟! أفاق من سرحانه وسأل عم صابر، وإزاي تتعمل المسابقة ونقنعه بيها وهي أساسًا مش موجودة.

سهلة يا أستاذ صبري، روح للناس بتوع الحفلة وقولهم على فكرة المسابقة وهما أكيد هينبسطوا وممكن يغيروا الإعلان ويطولوا مدته كمان، أكيد لأنهم عايزين يفرحوا الناس، بس أنت

بقـى ضحـي واديهـم ثمـن كل ده وشـوف حـد مـن معارفـك رجـال الأعمـال يتبـرع بـكام وظيفـة للشـباب اللـي هيفـوز والله لو كان الأسـتاذ نبيـل منهـم يبقـى خيـر وبركـة مـش منهـم يبقـى أنـت عملـت خيـر في الشـباب وتبقـى صدقـة جاريـة منـك طـول العمـر ويمكـن بسـببها ربنـا يهـدي نبيـل وأهـه تبقـى عملـت اللـي عليـك قـدام ربنـا.

نهـض أسـتاذ صبـري وكأن قـوة العالـم تجمعـت في قدميـه وفِكـر العالـم المسـتنير مـلأ عقلـه، نهـض وقبـل جبـين عـم صابـر وضمـه لصـدره، مـا أروعـك يـا عـم صابـر! مـا أروع بسـاطتك وفكـرك وبسـمتك ورجولتـك وصداقتـك! هيبقـي ليـك حـلاوة كبيـرة يـا عـم صابـر لـو قبلـوا الفكـرة وسـواء نجحـت أو مانجحتـش، أسـتأذنك يـا عـم صابـر علشـان أبـدأ الخطـة.

أظهـر المسـئولون عـن الحفـل ترحيبًـا كبيـرًا بفكـرة الأسـتاذ صبـري ووافقـوا علـى تغييـر البرنامـج والإعـلان ووعـدوا بتحمـل النفقـات كلهـا مـن خـلال نفـس رجـال الأعمـال المتبنيـين للحفـل ولكـن أصـر الأسـتاذ صبـري علـى المشـاركة بمبلـغ يتحمـل بـه جائـزة كاملـة لأحـد الشـباب، وافـق منسـقوا الحفـل وتحولـت إلـى مسـابقة كبيـرة يتقـدم لهـا الأب والابـن بملـف واحـد ومـن يحصـل علـى الجائـزة هـو الابـن والتكـريم هـو الأب.

لـم يعـد أمـام الأسـتاذ صبـري سـوى إقنـاع ابنـه نبيـل بدخـول المسـابقة وعمـل الـلازم لكـي يفـوز بالجائـزة الأولـى، لـم يجـد أمامـه سـوى ابنتـه سـميرة ونجـلاء حبيبـة قلـب نبيـل التـي طالما كانـت سـبب الخـلاف بينـه وبـين نبيـل، لما علمـت سـميرة الفكـرة بتفاصيلهـا مـن والدهـا ومـن كان وراءهـا تحمسـت جـدًا لهـا ووعدتـه بعمـل الـلازم مـع نجـلاء لإقناعـه وأكدت أنـه سـوف يوافـق مـن أجـل المـال والسـفر وحبيبتـه. وبالفعل اجتمعـت سـميرة مـع نجـلاء علـى نبيـل والـذي قابـل فكـرة المسـابقة بـلا مبـالاة كالعـادة ولكنـه وافـق أخيـرًا بعـد إلحـاح مـن حبيبتـه وأختـه ودعـوات مـن أبيـه.

لازمـت سـميرة ونجـلاء تحـركات نبيـل ووالـده وسـجلت أحـداث علاقـة الأب والابـن والتـي ظهـر فيهـا نبيـل براعتـه كممثـل كبيـر أمـام كاميـرا تسـجيل سـميرة ونجـلاء بالرغـم مـن التأثـر الشـديد الـذي ظهـر في مآقـي والـده، ومـع الوقـت كلمـا رأى نبيـل مآقـي والـده تلمـع بدموعـه الحبيسـة كلمـا رق قلبـه وتقـرب مـن والـده حتـى تمنـى أن يبكـي والـده ولـو مـرة ليمسـح لـه دموعـه، وبالفعـل وبعـد أن شـعر والـده ببعـض التحـول مـن ابنـه ذرف دموعـه دون أن يـدري، ثـم سـالت علـى وجنتيـه عندمـا شـعر بأنامـل ابنـه تحـت جفونـه تجفـف دموعـه، أتـدري يـا نبيـل كـم كنـت أنتظـر هـذه اللحظـة ولكـن بـدون دمـوع؟! وهـل تـدري يـا والـدي كـم تمنيـت أن تـذرف ولـو دمعـة لأجففهـا بكفـي وأعتـذر لـك عـن جفائـي؟! التقطـت سـميرة هـذه اللحظـة النـادرة

والعفوية بالكاميرا لتجعلها خاتمة العرض الذي سوف تقدمه عن العلاقة بين الأب والابن في المسابقة.

جلس نبيل بجانب والده وحواليهما سميرة ونجلاء وعم صابر وبدأت مراسم الحفل والإعلان عن المتسابقين والفائزين، أقلبك يخفق الآن يا نبيل تمنيًا للجائزة الأولى؟! نعم، قلبي يخفق يا والدي ولكن ليس للجائزة بل من فرحتي لعودتي إلى طبعي الذي غاب عني سنين طوال، وها هي يديك ورأسك أقبلها يا والدي الحبيب. ابتسم عم صابر لما سمع كلمة طبع وتطبع، وغمز بعينيه للأستاذ صبري بابتسامة وضحكة، ابتسم عم صابر ثم سكت الجميع وعيونهم على مقدم الحفل فقد جاء وقت الإعلان عن الفائز الأول.

الآن سيداتي وسادتي حانت اللحظة التي يتطلع لها كل أب وكل ابن لجائزة الأب والابن المثالي وهي الأولى من نوعها. تقدم للمسابقة أكثر من مائتي متسابق كل متسابق عبارة عن ابن وأب وكانت المنافسة شديدة للغاية جعلت مهمة لجنة التحكيم في غاية الصعوبة خاصة أن معظم المتسابقين تنطبق عليهم الشروط. وفي النهاية اختارت لجنة التحكيم أبًا وابنًا للجائزة الأولى بعد تطبيق كل المعايير المعلن عنها، والآن الجائزة الأولى لأب وابن لم يستسلما للعلاقة السلبية بل حولاها لعلاقة إيجابية انتهت بأسرة سعيدة ورضاء الأب وفلاح الابن كمثال واقعي بأن الإنسانية تتدفق في

قلوبنا ولكنها تحتاج فقط لمن يفتح لها صنبور العواطف المغلق. والآن الفائزون هما الأستاذ صبري عبد الفتاح محمد وابنه الأستاذ نبيل صبري محمد، ألف مبروك للفائزين بالجائزة الأولى وأدام الله عليكما الحب الأسري والوئام.

نهض الأستاذ صبري يتأبط ذراع ابنه وعيونهما متعلقة على سميرة ونجلاء وعم صابر، وما إن تسلم درع التكريم حتى وقف الأستاذ صبري ليهدي هذا الدرع إلى صاحب الفضل عم صابر بعد أن ذكر أنه صاحب الفكرة التي حولت نهج المسابقة لتسعد الأب والابن بطريقة عملية وبفلسفة بسيطة بأن الطبع قد يُبعَث في صاحبه ليتطبع به ولو بعد حين. شكرًا يا عم صابر ومبروك لك التكريم.

ذرفت الدموع من عيني عم صابر لما تسلم أول درع في حياته أمام جمع الناس والتلفاز ورجال الأعمال والمسئولين، ثم لمعت عيناه بالفرح والرضا والأمل لما سمع مقدم الحفل يعلن عن تغيير مسمى المسابقة وللأبد باسم «مسابقة عم صابر للأب والابن المثالي».

بكى عم صابر من الفرحة، والناس تباركه فقد أصبح الصديق والمفكر المثالي.

●●●

جوايا حاجات وحاجات

خاطرة بقلمي

د. محمد لبيب سالم

جوايا حاجات وحاجات

جوايا فراغ وهوِّ كبير

سقف وبيت وجدران

وأرض واسعة وغيطان

وصحرا وزرع وألغام

جوايا أفكار وأحلام

ولعب وحكمة ومية ونار

طفل بيضحك ليّ فرحان

وشيخ نايم فيّ سرحان

وولد زي القمر غضبان

جوايا شباب ضله حيران

عالم حزن وفرح وتوهان

جوايا زحمة أفعال وكلام

وناس بتطير زي الغربان

وناس بتحرق زي النيران

وناس زي نسمة رمضان

جوايا حر وضلة ونسمات

خناقات مع لِيلي السهران

ونهاري اللي مليان حكايات

جوايا قلب وعقل وأسرار

جوايا نور وأحمد وصلاح

وياسمين وضي وبسمات

جوايا ألف حياة وحياة

جوايا حاجات وحاجات

#محمد__لبيب__سالم__خواطر

عن المؤلف:

د. محمد لبيب سالم أستاذ بكلية العلوم ومدير مركز التميز لأبحاث السرطان ومدير مركز المشروعات والإبتكارات ونقل التكنولوجيا بجامعة طنطا والمشرف العام علي مركز بحوث تنمية إقليم الدلتا بمصر . د. لبيب باحث في علم المناعة والأورام وعضو في العديد من اللجان القومية في التعليم والبحث العلمي وعضو في اتحاد الكتاب بمصر ومستشار علمي لمنظمة المجتمع العلمي العربي .

د. لبيب مؤلف وكاتب وتمثل رواية «وقت للبيع» أولي روايته الصادرة عن دار أطلس للنشر والطباعة والتي تم ترشحيها في عام ٢٠١٥ لجائزة الرواية في الأدب العربي المعروفة بإسم "البوكر». ثم توالت اعمال د. لبيب الأدبية لينشر المجموعة القصصية "العشق الحلال" «. وتم عرض كلا من رواية وقت للبيع والمجموعة القصصية "وقت للبيع» في المعرض الدولي للكتاب بمصر وكذلك في العديد من معارض الكتاب الأخري بمصر والدول العربية. وله تحت الطبع المجموعة القصصية بعنوان «زحمة مشاعر» الصادرة عن دار أطلس للنشر. وامتدت مؤلفاته الأدبية لتشمل حديثا رواية «سفاري إلي الجهاز المناعي» ومؤلف بعنوان « أساسيات في العلاج

المناعـي لـلأورام» . وقـد نشـر د. لبيـب أيضـا سلسـلة مـن المقـالات العلميـة والأدبيـة والسياسـية في العديـد مـن الجرائـد والمجـلات المصريـة والعربيـة مثـل العلـم، العربـي، الفيصـل، روزليوسـف، العالـم اليـوم ومنظمـة المجتمـع العلمـي العربـي بالإضافـة إلـي المواقـع العربيـة مثـل مجتمـع بنـاة وموضـوع.

د. لبيـب حاصـل علـي بكالريـوس العلـوم عام ١٩٨٤، ، وماجسـتير العلـوم في ١٩٨٩، ودكتـوراة العلـوم في ١٩٩٥. وقـد مُنـح د. لبيـب جائـزة الدولـة التشـجيعية لعـام ٢٠٠٤ وجائـزة الدولـة للتفـوق لعـام ٢٠١٠ وجائـزة جامعـة طنطـا التقديريـة لعـام ٢٠١٥ ورشـحمن قبـل جامعـة طنطـا للحصـول علـي جائـزة الدولـة التقديريـة في العلـوم الأساسـية في ٢٠١٥. ولـه أكثـر مـن ١٠٠ مؤلـف علمـي منشـورة بالدوريـات العلميـة العالميـة. د. لبيب عضـو في هيئـة التحرير للعديـد مـن الدوريـات العلمية. واسـتقر د. لبيـب بمدينـة فوكـوكا باليابـان كباحـث لمـدة خمسـة أعـوام في الفتـرة مـن ١٩٩٢-١٩٩٤ ثـم مـن ١٩٩٧ - ٢٠٠١. وفي مدينـة تشارلسـتون بأمريكيـا مـن ٢٠٠١ - ٢٠١٠ كأسـتاذ جامعـي وباحـث.

قـام د. لبيـب بزيـارة العديـد مـن الـدول مثـل الصـين، كنـدا، إيطاليـا، ماليزيـا، كوريـا الجنوبيـة، السـعودية، الأردن، الإمارات. وقـد أثـرت هـذه الرحـلات وكذلـك طبيعـة العمـل كباحـث في أسـلوب

كتاباتـه الأدبيـة التـي تتسـم بالتحليـل وربـط الظواهـر البيولوجيـة بالأمـور الحياتيـة مـع إضفـاء الخيـال الأدبـي لإظهـار الواقـع بحـس أدبـي رفيـع.

mohamedlabibsalem@yahoo.com

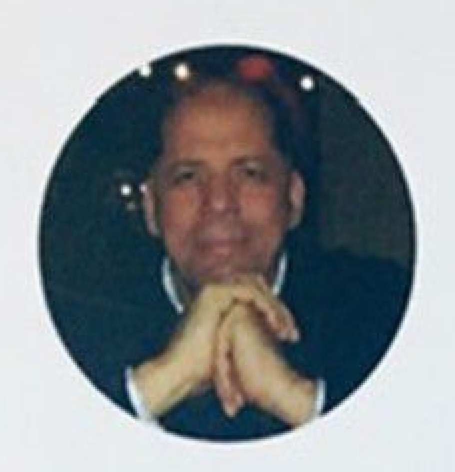
المحتوى	الصفحة



أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

عن زحمة مشاعر



من منا لا يجري ويهرول وراء مشاعره في بحر الحياة المائج. فالمشاعر الإنسانية هي أعز ما تملكه النفس، هي الترمومتر الحقيقي للسعادة والحزن. وقد تفور المشاعر في لحظة حب صادقة وقد تتقوقع في لحظة حزن فارقة. وقد تتزاحم المشاعر وتتضارب فتفقد صوابها. حينئذ نحتاج إلي لمسة حب حقيقية تطل من عيون الآخر لترسو النفس علي شاطئ حبات رماله من مشاعر الحب النقيه الصادقة.

وعن زحمة المشاعر التي قد تنتاب النفس تدور هذه المجموعة القصصية التي يشعر القارئ فيها وكأنه هناك بين سطورها يستمع اليها وهي تتحدث عنه في لحظة ما ومكان ما يبحث فيها عن مشاعر صادقة وسط زحمة الحياة القاسية.

المؤلف .. د. محمد لبيب سالم

أستاذ علم المناعة بجامعة طنطا وكاتب وروائي صدرت له عن دار أطلس للنشر رواية "وقت للبيع" في ٢٠١٤ والمجموعة القصصية "العشق الحلال" في ٢٠١٥ وتحت الطبع رواية بعنوان "كانديه".



